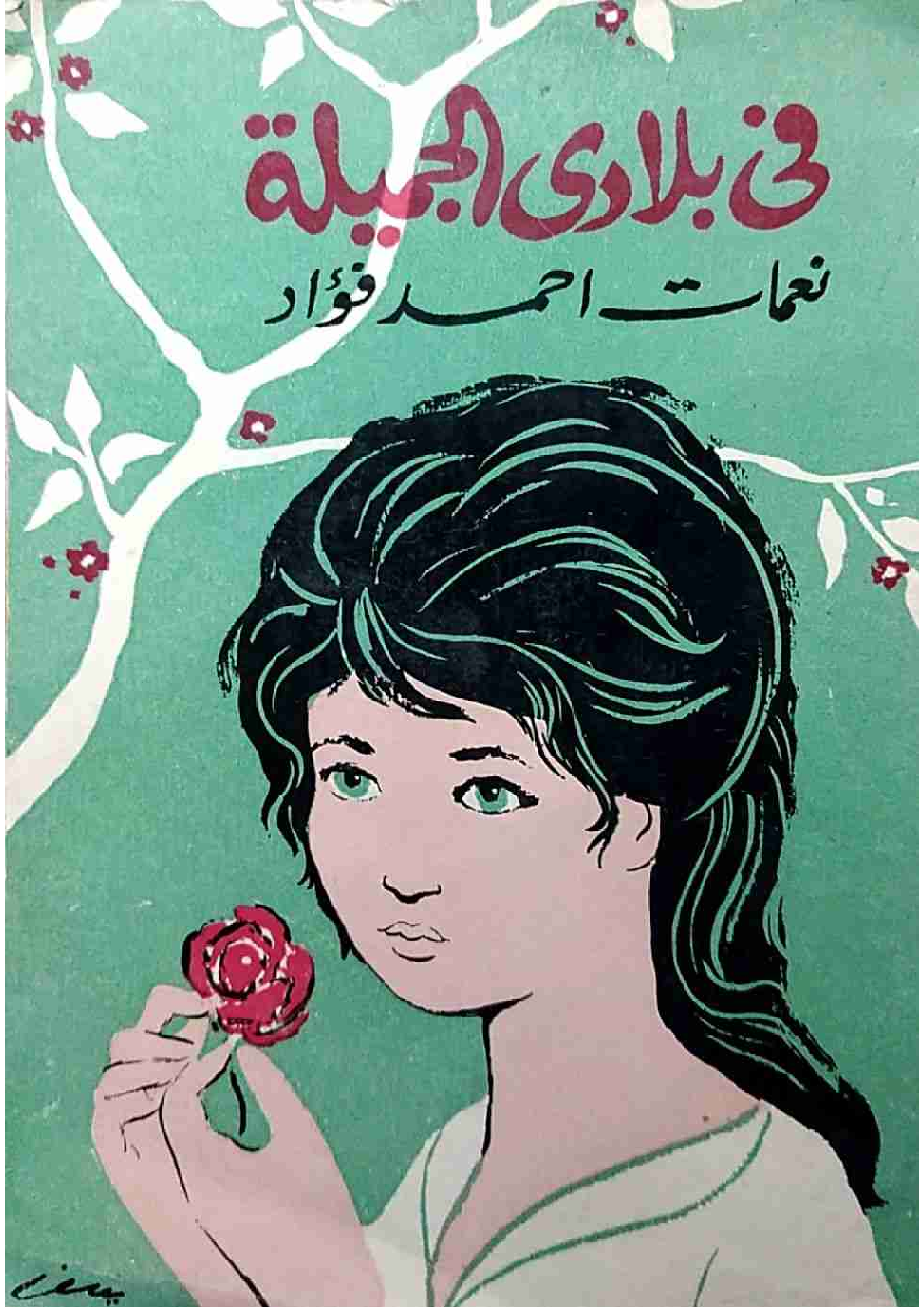

في بلادي الجميلة
نعمات احمد فؤاد

في بلادي الجميلة

دكتوره
نعمات أحمد فؤاد

في بلادي الجميلة

الناشر
مؤسسة الخانجي بالقاهرة

[الطبعة الأولى]
أكتوبر ١٩٦٢

مقدمة

بقلم الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات

الأدب العربي — وإن شئت قلت الأدب العالمي — فقير في أدب المرأة . ومعنى الفقر هنا يقترب كثيراً من معنى الخلو ، لأنك إذا عدت إلى مراصد التاريخ تراقب منها سموات الأدب في الشرق والغرب لا تجد في آفاقها الرحب إلا نجمة تلمع من حقبة إلى حقبة لمعان السهى تظهر من بعيد لتختفي من قريب !

وهذه الأنجم النوادر يلمعن في الأدب لا في العلم ، وفي النظم لا في النثر ، وفي فن الرجل لا في فن المرأة !

تستطيع أنت أن تضرب الأمثال على ضآلة الأدب الحوائي بجانب الأدب الآدمي من كل أدب في كل بلد وفي كل زمن ، لأن هذه الظاهرة عامة تكاد ترجع إلى الاستعداد والطبع أكثر مما ترجع إلى الاستبداد والجهالة . . .

وفعل المقاربة (تكاد) يمنع من إطلاق الحكم على شاعرية المرأة ، لأن المفهوم الشائع أنها انفعال مجسد وإحساس مرهف وتعبير بارز . وربما يصحح هذا المفهوم أنها على الجملة لم ترزق الخيال المجنح ولا التأمل العميق ولا التصوير المجرد ولا التفكير المستقل . إنها منذ خلقها الله من ضلع آدم مصابة بالتبعية للرجل . فالحب مثلا وهو أخص صفاتها الطبيعية تشعر به أشد الشعور ، ولكن حياءها الذى تأصل فى طبعها من حياطة الرجل لها ورقابته عليها يمنعها من التعبير الحر عن هذا الحب فتتركه للرجل . ولو أنها تغلبت يوما على هذا الحياء بجرأة الحرية وضعف الوازع ففعلت ما فعلته الكاتبة الفرنسية فرنسواز سوجان ، أو الكاتبة العربية خولة الخورى[1] لكان ذلك بدعا فى المجتمع يسترعى النظر ويستدعى الفضول .

والبغض أيضاً يساير الحب فى طبيعة المرأة ، فهى تبغض أشد البغض ولكن بغضها من نوع خاص لا يطلب التعبير العانى وإنما يكتفى بزفرة فى الصدر أو بعبرة فى العين . وهى لا تخطر ببالها أن تمدح لتستجدى أو تهجو لتستعدى ،

---

(١) سماها جدها المرحوم فارس الخورى (خولة) وأبت إلا أن تسمى نفسها (كوليت) .

فإن الرجل قد آمنها من الجوع والخوف بكفه وسيفه . دنيا المرأة هى عش الزوجية الذى تحلم به وهى فى رعاية الأب ثم تستكن فيه وهى فى حماية الزوج ؛ وكل آلتها لهذا العش جمال وحب تمسك بهما الرجل ، وحنان وعطف ترأم بهما على الولد . والتعبير عن هذه العواطف الطبيعية يكون بالفعل لا بالقول ، وبالشعور لا بالشعر . فإذا خرجت عن دنياها الخاصة إلى الدنيا العامة فتفاعلت مع الأحداث ، وتأثرت بأحوال الناس حملت نصيبها من أمانة الأدب ورسالة الفكر .

فى هذه النواحى العضوية والنفسية والاجتماعية يجب أن نتلمس الأسباب الجوهرية لندرة الأدب النسوى فى العالم قديمه وحديثه وشرقيه وغربيه . فإن تلمس هذه الأسباب فى حرمان المرأة من الحرية وتخلفها فى الثقافة وانعزالها عن المجتمع لا يعلل هذه الندرة فى الغرب . وإن تلمسها فى انكبابها على العمل وانغمارها فى المادة وانطلاقها من القيد لا يعلل هذه الندرة فى الشرق . وإذا تذكرت أن هـذه الندرة ملحوظة فى أدب اليونان والرومان وفى أدب الهند والفرس ، وفى أدب اللاتين والسكسون ، أدركت أن

هذه الظاهرة المحيرة أعمق من أن تحلل فى كلمة موجزة ، وأوسع من أن ترد إلى سبب واحد .

خذ الأدب العربى مثلا : شغل هذا الأدب العريق الزمن من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن العشرين ، وطبق الأرض من أقصى بلاد الشرق إلى أقصى بلاد الغرب ، وسع آداب الخليقة منذ طفولة الإنسان إلى اضمحلال الحضارة العربية ، وأنت مع ذلك إذا عرضت عصوره الخمسة على ذاكرتك لاتجد فيها من نوابغ النساء فى الأدب إلا الخنساء وتوابعها من خرنق بنت بدر ، وليلى بنت لكيز وجليلة بنت مرة فى العصر الجاهلى ، وإلا سكينة وليلى الأخيلية بين تسعين شاعرا فى العصر الأموى ، وإلا علية بنت المهدى فى العصر العباسى ، وإلا ولادة بنت المستكفى وحمدونة فى العصر الأندلسى ، ثم تنتظر طويلا لتعثر فى طوايا ذاكرتك على السيدة عائشة الباعونية تتنقل بين دمشق والقاهرة فى أوائل القرن الهجرى العاشر !

نعم أوافقك على أن فى الآفاق السحيقة نجيمات دقاقاً لايدرك ضوأهن المرصد ، ولكن ذلك على صحته لاينفى الندرة ولا يغير النسبة ، فإن فى الرجال أيضاً آلافا

غمرهم الخمول فلم يقعوا فى سمع الزمان وبصره لا بالرواية ولا بالرؤية .

أما ما روى عن أبي نواس من أنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة ، وما روى عن الخوارزمى من أنه قصد الصاحب بن عباد بأرجان . فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال : إن بالباب أديباً يستأذن فى الدخول ، فقال الوزير : قل له قد ألزمت نفسى ألا يدخل علىّ إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب . فقال أبو بكر للحاجب ارجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أو من شعر النساء ؟ فلما أخبر بذلك الصاحب قال هذا أبو بكر الخوارزمى ، فإن ذلك وشبهه إذا أطفأت لمعة التمويه والتهويل فيه لا يبقى تحت النظر منه إلا تلك المقطعات التى جمعها الرواة واللغويون من شعر أعرابيات مجهولات كن ينشدنه إلهاء لأنفسهن وهن يهدهدن الطفل أو يدرن المغزل أو يرعين القطيع .

* * *

قلت إن المرأة الموهوبة إذا خرجت من نفسها إلى الناس ، ومن بيتها إلى المجتمع ، فشعرت بالشعور

العام وأسهمت فى الوجود المشترك ، تفتحت قريحتها عن الجزء الإلهى المكنون فى كل نفس وهو الأدب فعبرت به عن مشاعر شعب أو أحاسيس عالم ، مصداق ذلك تجده فى أدبنا النسوى فى هذا القرن على تفاوت شديد فيه بين ربعه الأول وربعه الثانى . تيقظت المرأة المصرية على صيحة قاسم أمين . ولم تكد تمسح عن جفنيها فتور الكرى الثقيل الطويل حتى ضاقت بالحجاب وبرمت بالقيد وتطلعت من خصاص الأبواب وثقوب النوافذ إلى المـَراد الرحب والفضاء الفسيح والشارع اللجب ، فقررت أن تحطم القيد وتكسر الباب وتهصر الستار وتخرج إلى الدنيا لتشارك الرجل فى العلم والعمل والأمل ، فتفعل كما يفعل وتقول كما يقول وترجو كما يرجو . وساعدها على هذه الانطلاقة حدوث الهبة العامة فى مصر عقب الحرب العالمية الأولى ، وسهولة النشر والإعلام بالطباعة والصحافة والإذاعة . وكانت البواكير الأدبية من الحقل النسائى قد أخذت أكمامها تتشقق عنها فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، فظهرت وردة اليازجية وعائشة التيمورية وزينب فواز وأنيسه وعفيفه الشرتونيتان ولبيبه هاشم وملك ناصف ومىّ زيادة .

ثم اكتمل شباب الربيع واكتهل غراس النهضة فظهرت الطبقة الثانية من الأديبات وكانت أنضر عودا وأذكى أريجا وأعلى ثمرا وأغلى فائدة — طبقة سهير القلماوى وعائشة عبد الرحمن ونعمات فؤاد ووداد سكاكينى وفدوى طوقان ونازك الملائكة وروحية القلينى ثم جاذبية صدقى . وقد تقسمن الفنون الأدبية على حسب استعدادهن واجتهادهن ، فمنهن الناقدة البصيرة والباحثة المحققة والكاتبة البليغة والأديبة الموفقة والشاعرة الرقيقة والقصصية المجيدة . ولكل واحدة منهن أسلوب فى النثر أو النظم صاغته من طبيعتها ونشأتها وثقافتها واستعدادها ، فيه الغموض والاختلاط ، وفيه الوضوح والتميز ومنه الوصفى الرصين السليم ، ومنه التقريرى السقيم المهلهل . ولست هنا بسبيل البحث الموضوعى فى هاتين الطبقتين فأبين العوامل المؤثرة فيهما ، وأذكر الخصائص المميزة بينهما ، وأحلل الأعمال الصادرة عنهما فإن ذلك موضعه تاريخ الأدب . إنما أنا فى هذه الكلمة بسبيل كاتبة وكتاب . الكاتبة هى الدكتورة نعمات فؤاد ، والكتاب هو كتابها الحادى عشر (فى بلادى الجميلة) . . وما أريد أن أعرض لنعمات هنا إلا من جهة الفن ، ولا لفنها

اليوم إلا من جهة الأسلوب . ومن يعرض لفن الكاتب وأسلوبه بالكشف والوصف والتحليل فقد عرض لكل شيء فيه . وهل الأسلوب كما قيل بحق إلا الكاتب أو الكاتبة فى صورة مؤتلفة من عقله وفكره وشعوره وخلقه وذوقه وطابعه ؟ لقد كتبت نعمات فى البحث والنقد والوصف والتراجم ، ولكن هذه الفنون المختلفة يؤلف بينها أسلوب واحد إذا عرفت طريقتها فى هذه الفنون وحقيقتها من هذه المعانى .

إن الأسلوب مركب فنى من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه ، تلك العناصر هى الأفكار والصور والعواطف ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة والموسيقية المعبرة . والمراد بالصورة إبراز المعنى العقلى فى صورة محسة ، وبالعاطفة تحريك النفس لتميل إلى المعنى المعبر عنه أو لتنفر منه . والأسلوب بهذا المعنى لا يكتسب بالتعليم ولا بالتقليد . وإنما هو هندسة روحية وملكة ذهنية تتمثلان فى قالب معنوى غير موصوف ولا معروف تخرج منه الفكرة والعاطفة والخيال والصورة منسقة على الوضع الذى ارتضاه الذوق الرفيع فى الإنسان الذى علمه الله البيان وآتاه الحكمة .

ولعلنا إذا استثنينا النساء الشواعر فى القديم والحديث لا نجد فى الكاتبات العربيات من ينطبق على أسلوبهن هذا الوصف إلا كاتبتين اثنتين فى هاتين الطبقتين : الأولى فى الأولى مىّ زيادة ، والأخرى فى الأخرى نعمات فؤاد . ذلك لأن أسلوبهما يتميز من سائر الأساليب النسوية بالشاعرية والأناقة والتنويع والتلوين والحركة . وتزيد نعمات على صاحبتها بالعمق والدقة والسلامة وتوليد المعنى من المعنى ومزاوجة اللفظ للفظ واستبطان دخائل الموضوع واستقصاء أطرافه حتى لا تدع فيه معنى يخطر على بال . وكل ذلك فى غير تكرار ولا إملال ولا سقط ، وكل ذلك فى حسن نسق وجمال إيقاع من غير تكلف ولا شطط .

وموسيقى نعمات ألحان من المعنى وأنغام من اللفظ لا يبلغ بدونها الكلام ، ولا يقوى بغيرها الأثر . وهى موسيقى معبرة لأنها من بنية الأسلوب فى باطنه ، لا من حلية التركيب فى ظاهره . وهى فى بعض الكتاب والكواتب سجية وطبع ، فكما لا يستطيع البلبل أن يكون غراباً ينغب ولا ضفدعا تنق كذلك لا يستطيع الفنان الصادق أن يكون فجا على الذوق ولا ثقيلا على الأذن .

أذكر أن نعمات كانت فى بعض أعمالها أمينة للجنة النثر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فكانت تكتب محاضر الجلسات بالأسلوب الرفيع تختار له اللفظ الملائم ، وتنتقى له التعبير المؤدى ، ولكن أعضاء اللجنة وهم من أقطاب الكتاب أنكروا عليها أن تستبدل بأسلوب الدواوين أسلوب البيان والتبيين . فآثرت أن تظل بلبلا يطرب على أن تصير غرابا ينعب وانصرفت عن هذا العمل إلى غيره . إن أسلوب نعمات أصيل صادق ، لأنه ينم عن طبيعة المرأة ويكشف عن جوهر الأنوثة . ولا يشاركها فى هذه الخصيصة إلا الآنسة مىّ . أما غيرهما من الكاتبات النوابغ فقد تقرأ لهن الأسلوب الجزل والبيان المحكم والرأى النضيج ، ولكنك تستشف من وراء ذلك محاكاة الرجل فى فحولة منطقه وطريقة فنه .

أنت من نعمات بين زوج وفية وأم رءوم وأخت مواسية ومواطنة مخلصة وعاشقة للنيل تنشد على ضفافه الخضر أناشيدها المؤلفة من عبرات إيزيس ، وضحكات كليو بطره ، وصلوات عمرو وغزوات صلاح الدين .

ونعمات منك بمثابة بياتريس من دانتى : تطوف بك فى مجالى الطبيعة ومشاهد الكون (فى الورد) و (الريف) و (فى الليل) و (فى المقطم) و (فى الهرم) و (فى الفرح) كما طافت بالشاعر الإيطالى حبيبته الروحية الملهمة مجالى الفردوس ومشاهد عدن .

حاشاك أن تحمل كلامى عن نعمات على المجاملة والمهاواة لأنها امرأة . وللنساء على الرجال لين القول وحسن المصانعة . إنى أقول وبين يدى الدليل وأحكم وأمام عينى السند . اقرأ على سبيل المثال مقالها (فى البيت) أو (فى الريف) أو (فى المدرسة) أو (فى الطريق) أو أى مقال شئت ، ثم حاول من طريق الفن أو من طريق الذوق أن تطبق ما وصفت لك من أسلوبها على ما قرأت أنت من كلامها . فإذا لم تخرج من التصور إلى التصديق ، ومن التطبيق إلى التحقيق ، جاز لك أن تقول إنى رجل يقول على الأدب بغير علم ، ويحكم على الأدباء من غير بينة .

* * *

ذلك بعض القول فى الكاتبة . أما الكلام عن الكتاب فقد تضمنه الكلام عن أمه . وإن الثمرة فيها سر الشجرة

كله . فمهما أقل لك إن الشجرة ريانة الأصول فينانة الفروع رفافة الورق وارفة الظل حلوة الجنى ، لا تجد فى هذا القول على صدقه من الكفاية والرضا ما تجده فى الثمرة حين تقطفها بيديك ، وترمقها طويلا بعينيك ، ثم تدسها فى فمك ، فتذوق من حلاوة العصير ، وتشم من فوحة العبير ، ما يقنعك أن النبعة كريمة وأن الشجرة مباركة .

لقد حدثتك عن الكاتبة لأنها لا تتحدث عن نفسها ، أما الكتاب فسأدعه وإياك ليحدثك عن نفسه .

أول سبتمبر سنة ١٩٦٢ — أحمد حسن الزيات

إهداء

إلى بلادى الجميلة . . .

إلى بلادى الكريمة النبيلة . . .

إلى مصر العظيمة . . .

أهدى هذا الكتاب ؟

نعمات أحمد فؤاد

الفهرست

هذا الكتاب

هذا الكتاب يستطيع المرء أن يسميه مجموعة لقطات أو ينظر إليه نظرته إلى (البوم) تستوقفه فيه صورة وتروقه أخرى ، ولكنه بالنسبة إلىّ شيء آخر . . . إنه بضعة من نفسى . . . نبضات منها وانطباعات عليها .. إنه لحظات سعادة أو ألم .. إنه ساعات من حياتى وأيام من عمرى عشتها طولا وعرضا ثم كتبتها كما أحسستها لتبقى لى من إعزاز وكفى . . . فما إلى الدراسة قصدت أو الاستقصاء على تفاصيل فى صوره أرجو ألا تحمل عليه . . فهو فتات إنسانى لاذّ على بساطته وهو أشهى أحيانا من مائدة حافلة . . . فليعف النقاد أنفسهم من مهمة التنقيب عن المآخـــذ وليستريحوا من المطالبة (بالاستيفاءات) وليعيشوا معى فيه ، إن أحبوا ، فى هدوء شفاف يرشف الجمال ويغضى عن العيوب لأنه مشغول عنها بما هو خير منها

أو لأنه فى سعادة إحساسه وعمقه لا يكاد يحس بها أو لا يريد أن يراها . . .

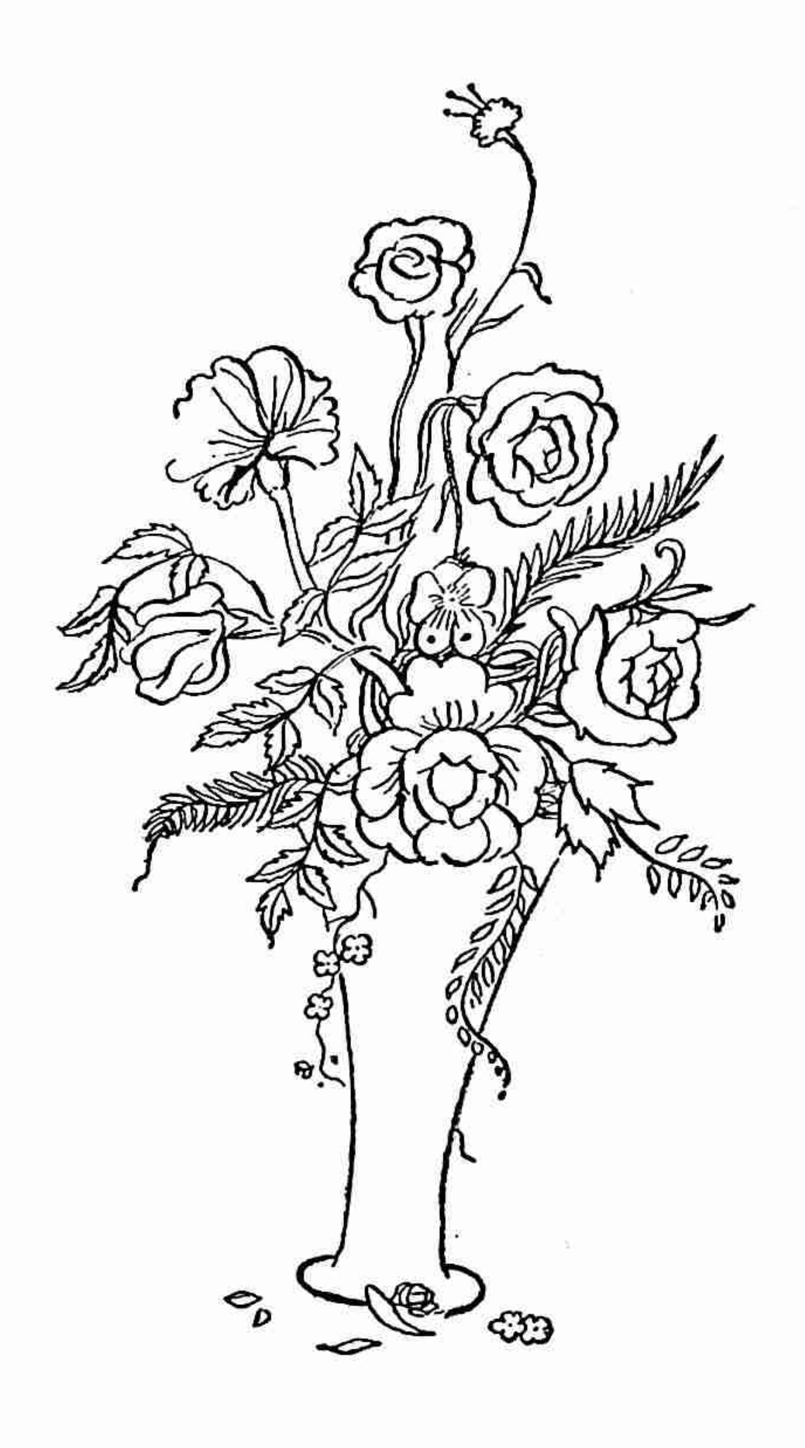
إن هذا الكتاب يظهر فى الوقت الذى يظهر فيه أكبر دراسة لى ، أعنى كتاب (النيل فى الأدب المصرى) ولعل ما فيه – وإن لم أقصد هذا – من سبحات ورؤى وأحلام وحقائق يقابل ما فى كتاب النيل من جهد الدراسة وتحقيق العلم والتزام المنهج وحرج التقرير . .

وقد ولد هذا الكتاب فى نفسى بعد أخيه وما لاقيت – راضية سعيدة – من عناء البحث فيه ، فكان (النيل) أجمل ما فى بلادى ، بمثابة المولود الغالى للأم الوالدة ، وكان حديثى عن بلادى الجميلة بعد الاطمئنان والراحة بمثابة (التدليل) الذى يلذ للوالدات بعد رهق الولادة وآلام الوضع . . .

فى بلادى الجميلة ومنها وإليها هذا الكتاب .

القاهرة فى سبتمبر سنة ١٩٦٢ — نعمات أحمد فؤاد

فى بلادى الجميلة



في الوردْ

أمامى زهرية ورودها قليلة ... ولكنها عالم غنى بالمعانى ... تواجهنى من هذه « الزهرية » وردتان متقابلتان إحداهما برعم ملفوف الأوراق فى حبكة ، عليه من الورق الأخضر سياج حارس ، وأخرى تفتحت وتبسطت فلم يعد يخفى منها شىء .. إنها جميلة بلا شك فى زهو اللون ورقة الأنفاس ، ولكنى تستهوينى الوردة البرعم .. كم عندها من أسرار وأشواق .. إنى أطيل إليها النظر البسام ، ولكنها لاتبوح .. هل هى تخشانى أم تخشى الورق الأخضر وحولها منه حاشية كبيرة ، وما أكثر فضول الحاشية .. إنها دائماً سر البلاء ولكن لماذا تفضى بسرها وجمالها كله مكنون فيه .. إنها تستهوينى هكذا بصمتها الغنى .. ماذا غنمت بجوارها الوردة الثرثارة التى نشرت صفحاتها كلها حتى لم يعد هناك ما تخفيه .. إنها أمامى تقول ولا أسمع حين تتجمع نظراتى

وأنفاسى على الوردة المضمومة على سرها يلفنى شوق ويلفها شوق ، وقد أغرى موقفها أو شغفنى بها ما حولها من ورود فاصطنعت كل حمراء الورق ، التحرز والضن بالسر العاطر حتى الوردة البيضاء التى همت بفتح شفتيها لبراءتها ، عادت فسكتت عن الكلام .

جميلة لغة الورد يا بديع الحياة والحى . .

فى آنية الزهور أمامى وردة طفلة تنام على صدر ورقة خضراء حانية .

ووردة بيضاء طاهرة شريفة لم تعرف الإثم ولا الخطيئة عالمها كله نقاء وصفاء وعفة .

الورد الأحمر يوقظ الحب ولكن الورد الأبيض يغرى بالفضيلة والخير كله كأنه قادم من الجنة لساعته على جناح ملك صغير .

والورد الأصفر ، مسكين ، من الذى رماه بالغيرة ؟ ألصفرة فيه ؟ وممن يغار المانجو أغلى الفواكه وأحلاها ؟ وممن يغار الذهب أنفس المعادن وأغلاها ؟ ولكن مالى أقرن الذهب بالورد ! قتل الإنسان ما أكفره ! صدقونى إذا قلت مخلصة أن الورد أصفره أو أحمره أو أبيضه أغلى عندى

من الذهب .. إنه فن وجمال وطيب وراحة خالصة يهدئ الأعصاب حين يشحذها الذهب . يخيل إلىّ أن أولئك الذين أوقعهم سوء حظهم أو قسوة ظروفهم فى الجريمة ، لم يروا الورد ولم يحسوا معانيه ! إن الجريمة فى نظرى ناجمة عن فقر فى المشاعر وحرمان من الجمال ... جمال الورد وجمال الحب .. وجمال التقدير ، وجمال التعبير ، وجمال النفس حرمان فى صورة من الصور يستعلى عليه التعيس استعلاء نازلا بالجريمة .. لو أن الأمر بيدى لوضعت كل مسجون فى خميلة لتتطهر نفسه من شوائبها ويصفو قلبه من أدرانه وتتهذب مشاعره وتشف روحه ، ويدنو من رحاب الله ..

والزهرة البنفسج الفاتح الغارق فى الصمت وفى الأحلام ما أعزها عندى فى لفائفها المتداخلة كقراطيس صغيرة .. أنها ترنو إلىّ فى استحياء من وراء الوردة الحمراء ونظرت ، إليها وأصغيت ، فراعنى دمعة فى مثل حبة اللؤلؤ تلمع على خدها .. ما الذى أراقها ؟ هل جادها الطل فى بكرة الصباح الندية أم قاس رماها ؟ انتزعها من أمها فأقصاها ، ما أرقها فى الجرح والبرحاء وهى لاتشكو ولكنه

على الصّمت يشجينى شجاها .. وأدنيتها منى وقبلتها كما أقبل ابنتى إذا طاف بها طائف فأبكاها .

والورق الأخضر صغيره وكبيره . . دنيا أخرى من المعانى والرفيف ما أبره بالورد وما أحناه ، يحوطه ويصون ، وهو إذا سرى النسيم حمل إليه رسائله المحملة بأشواق العشاق فإذا إهتز الورق الأخضر وسرت فيه رعشة خفيفة من الفرحة أو النشوة .. ابتسم الورد .. ما أذكاه .

والورد على هدوئه ولوع بالحركة كالروض الذى خرج منه .

فالروضّ كل شىء فيه يتحرك .. النسيم .. النهر .. الزهر ... العشب ... الطيور ... حتى جذوع الأشجار التى تبدو ثابتة هى فى الواقع متحركة ... متحركة إلى أعلى إذا استطالت .. ومتحركة إلى أسفل إذا تعمقت جذورها فى الأرض ثم هناك حركة الغصون والأوراق والظل .

هذا الشجر المتحرك ظاهرا وباطنا يخرج منه الجامد . . الخشب .. ومن عجائب الطبيعة التقاء المتناقضات فيولج بديعها ، الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى .

ويتسم الروض بالعطاء ، يعطى النهر الرى ، ويبعث الزهر العطر ، ويرسل الطير النغم ، ويفىء الشجر الظل ، ويقطر الندى ، الطل ، ولعل الوحيد الذى يأخذ فى هـذا المجال ، هو الإنسان ! يقطف الزهر ، ويستروح الشذى ، ويتفيأ الظلال ، ويقتبس الألوان ، ويستوحى الشعر ، ويستشعر الوفرة ، وينعم بالسلام والصفاء والدعة ... ولكنه والحق يقال يهب كل هذه الأشياء معانيها ويعلن سحرها رساما ومثالا وموسيقيا وشاعراً .. وما بالقليل هذا فى باب المنح والإهداء .

ويتمنى الإنسان لنفسه فتحوم أمانيه كلها حول الورد .. يحلم ويحلم فإذا الحلم أن يكون فى مثل طهارة الورد وغناء النفس .. أن يكون مرموقاً معشوقا .. مثله .. أن يكون موفوراً .. لا يفتقد الغذاء والسقيا ، أن يكون فى تجاوب مع المحيطين به .. كما يتجاوب النهر والزهر والنسيم والطير والشجر .. كل شىء فى الروض يتمناه الإنسان لنفسه وتنعكس هذه الرغبة فى رسومه ونقوشه وثيابه وأثاثه وتحفه ومتاعه وحديثه إن كان مترفا .. وقصيده إن كان مفوفاً .. وأسلوبه إن كان مصقولا ناعماً . الشىء الوحيد الذى يفزع الإنسان أن يكون

فيه للزهر مشابها هو . . . العمر . . إنه لا يرضى أبدا بعمر الورد ولو أثقلته الهموم ، وآدته المواجع ونبت به المضاجع ، وضاقت عليه السبل . ولا أحاج هنا بالمنتحرين فهؤلاء مرضى أو فاقدو الوعى وهم فى الحالتين ليس عليهم حرج . .

عينى على زهريتى الجميلة ، لاتتحول . . وكلما تملت عينى المفتونة « الزهرية » طاف خيالى وذاكرتى معا بألوان الزهور التى تمليتها فى أماكن مختلفة وأوقات مختلفة — فى حب وعباده كما أفعل الآن مع زهورى الناعمة .. كم رأيت . . كم تمليت . . كم وعيت فى دنيا الزهور من ألوان وأشكال . فأزهار السنانير المبرقشة المزركشة .

وأزهار الأقحوان الذهبية المتوهجة كبريق الذهب أو وهج الشعاع .

وأزهار مفوهة (كالانترهينم) ذات الشفاه المعسولة .

وأزهار (الدلفينم) التى تكاثرت القلوب على هواها[١] .

وأزهار وفية كعباد الشمس .

---

(١) تحتوى أزهار (الدلفينم) الزرقاء على قلوب صفر فاتحة تشبه الأنقاف الصغيرة .

وأزهار عبقرية كالقرنفل .

وأزهار نابغة تقلدها (كالديانتس) . والتقليد دائماً تحية أصحاب النبوغ لأهل العبقرية .

وأزهار كنجم إبراهيم الذى ما كاد يبزغ حتى أفل كالفنديم والبنسيه(١) .

وأزهار طويلة الآجال كالجرجير أو الجارونيا حتى ليطلق عليها نسبيا اسم « الأزهار المعمرة » .

وأزهار صديقة الشتاء كأزهار « العايق » .

وأزهار صديقة الصيف كالزينياو (المدنا) و(عرف الديك) .

وأزهار متسلقة فى مثل شقاوة الطفولة (كالبجنونيا) و (شبر فايد) .

وأزهار من هواة الماء حتى لا ترى إلا عند موارده كأزهار (الكلا) التى يحلو إهداؤها مع (الليليم) فى أفراح

---

(١) أزهار (الفنديم) و (البنسيه) تعيش فصلا زراعيا واحداً وتسمى فى عالم البساتين (الأزهار الحولية) .

القلوب ودنا العرائس ومواكب الزفاف . ما أسعد الماء بعشاقه .. فى أعماقه يكمن الدر والمرجان وفيه يعيش السمك الشهى ، وعليه يعوم البط المدل ويطفو نبات (الأيكورنيا) و (اللوتس) المصرى ومنه كل شىء حى .

وأزهار (بريه) ولعل هذه التسمية لصقت بها من تواضعها ونموها على حفافى الترع فى الريف ، وحوافى الكثبان فى الصحراء . . وإن لم تتخل عنها المعانى (الزهرية) ، أو يخذلها الجمال ذو الألوان بل كثيراً ما تنضم إليهما الفائدة التى تتوافر لأزهار القرطم والكتان والحلة واللوف و (الكروكسى) وغيرها مما لا أحيط .

وأزهار حيية محافظة تخجل من الشعاع وتهوى الحجاب وكأنها وعت دوننا قوله تعالى « وقرن فى بيوتكن » فهى لاتغادر (الصوبا)[١] . كحريم الشرق القديم اللائى كن يتنفسن الهواء من المشربيات كما تتنفسه « البرمبولا » و « البيجوتيا » و « السنناريا » من بين سدابات الخشب المضروب حولها .

---

(١) الصوباوات بيوت من سدابات الخشب ذات فراغات تسمح بدخول الهواء تعيش فيها هذه الأزهار بعيدا عن ضوء الشمس .

وأزهار لها آذان .

وأزهار ذات أثداء .

وأزهار حولها أشواك ولكنها رائعة الجمال . . وهى على فتنتها غير مدلة أو متعجرفة بل حمول صبور . وأحسب الصبر أكبر صفاتها حتى اشتق منه اسمها .

وكم (للصبار) من عشاق وهواة . . .

وكالأزهار فى غنى عالمها ، الأبصال ذات اللون والمنظر والعبق يلتقى فى هذا على درجات « الجلاد يولس » ذى الاغماد و « الأنيمون » و « الأرونكيل » و « الأيرس » و « الفريزيا » و « التيوبروزا » و « الأمرلس » المفوف و « النرجس » المشوق المعشوق ذى النظرات .

عالم غنى بالمباهج والمفاتن عالم الأزهار .

زهرة تغنى باللون وزهرة ترقص بالعبير . .

وزهرة تعزف مع النسيم فهى بجمالها وألحانها سيمفونية كاملة . . .

وزهرة تتحلى بالندى دررا وعقودا . وما أكثر ما يجعل الندى الأزهار طازجة . . . طفلة . . .

وزهرة تتأمل . .

وزهرة تتعبد . . .

وزهرة شاعرة . . .

وزهرة معـــبرة . .

وزهرة تهدىء أفكارنا . .

وزهرة تشف نفوسنا . . .

وزهرة ترفع معنوياتنا . . .

وزهرة توقظ قلوبنا . .

وزهرة تفتح عقولنا .

وزهرة تلهب إحساسنا .

وزهرة تغسل الروح المتعب .

وزهرة تغرى بالتقى والفضيلة .

هناك إعجاز بلا مراء فى الأشياء الصغيرة . . الجميلة تنضر الحياة وتحببها إلينـــا وتغرينا بها وتسعدنا وتهنينا حين تقصر عن إهداء هذا كله ، أو تعجز على الأصح ، الأشياء الضخمة التى تروعنا وتجعلنا نلهث وراءها . . كرائم المال . . النجاح . . الظفر . . فى المعارك مما يتنافس عليه المتنافسون . . ولا تخلو حلاوته . . ان حلا ، من شائب يشوبها أو كدر يرنق صفوها .

هناك إعجاز فى الأشياء الصغيرة الجميلة . طائر يغرد . . قطة تقفز . . . فراشة تطفر . . رضيـــع يبتسم . . وليد

يلغو . . طفل يلهو . . صغير يأكل . . عيون تضحك وعيون تنكر الهوى وهى تبوح . . وعيون تلمـــح ولا من تصريح ، وعيون تتلعثم وفى عيها بلاغة الفصيح .

أشياء صغيرة كثيرة ... زهرة ... نظرة ... شفة ... رشفة ... قطرة .. لفتة حنان .. كلمة عطف .. غناء طير .. حفيف شجر ... وسوسة موج .. هسهسة غدير . . انثناءة غصن . وهج شعاع ... همسة حب مناغاة قلب .. رفرفة شعر . . هفهفة تعبير . . بكاء ناى . . حنـــة عود . . أنة وتر . . رنة فرح . .

أشياء صغيرة .. كثيرة .. جميلة .
أما معانى الأزهار فليس فى طوقى حصرها .
فهى بين الأصدقاء وداد .
وهى بين المتجافين عتاب وتصاف .
وهى بين الأصحاء والمرضى دعاء ورجاء .
وهى فى الأعراس تبريك وأمانى رفاء .
وهى فى السفر بشرى سلامة .
وهى فى الوداع شآبيب رحمة ورضوان .
وهى فى الحفلات والدور نغم راقص وتحية باسمة .
وهى فى الصالات والقصور ترف ناعم ونعمة قائمة .

وهى عند المصقولين وأهـل الأذواق هواية محبوبة ومتعة دائمة .

* * *

أولست معى أن الحياة بدون الأزهار والفنون وكل ما يهدى الجمال أو يعين على فهمه وتذوقه ، رخيصة جافة قاتمة ؟

قد تنكر هذه الحقيقة العصور التى تطغى فيها الماديات . والحضارة الآلية ولكنها سرعان ما يهدها الصراع ويردها اللغوب إلى حضن الطبيعة أم الأزهار والأنوار والفنون فتخلص من أدرانها وتتخلص من أفكارها السود فتصفو وتسمو وتشف وتجنح إلى السلام والوئام والمحبة .

ليتنى رسامة لأستطيع رسم الأزهار رسما يغنى .

ليتنى موسيقية لأستطيع تصوير الأزهار لحنا ملونا معطرا منضرا .

ليتنى شاعرة لأفوف لها القصـيد . . أو أرقرق لها النشيد . . . ليتنى . . . !



— فن بیتی —

اسم من جوامع الكلام ونوابغ الألفاظ ... بيت ... ليست هذه الكلمة حروفا ثلاثة إنما هى طاقة هائلة من المعانى والمفاهيم والقيم والعادات والتقاليد .

البيت ، زوج وأولاد وحديقة ومكتبة وقطة وببغاء وتاريخ عريض .. لقد وضح الآن أن البيت فى إحساسى ومفهومى .. ليس هو الطوب والحجارة ومواد البناء ..

وليس هو الأثاث والرياش المترف فقد يوحى الكرسى المكسور والسجادة البالية من المعانى مالا يوحيه الجديد . فالبلى فى ذاته تاريخ وزمن وأسباب .. إن القدم له طعمه أيضاً .. البيت إنما هو مستويات رفيعه من المعانى مستمدة من تطور التاريخ وحضارة التطور وقيم الإنسان تبلورت على الأيام وتركزت بفعل الزمن فى كلمة (بيت) .

... والإنجليز يحسون معناها أكثر من العرب بحكم

الطبيعة . فالبيت إنما هو المأوى والحمى والدفء بينما العربى الذى ألف العراء والصحراء والتنقل لايحس هذا المعنى إحساساً كاملا يشمل عليه نفسه .

بيت ، تلك الكلمة التى أرهص لها عصر الزراعة بعد أن هام الإنسان طويلا فى الفيافى والقفاز فى عصر الصيد .. ومنذ اجتذبت الأرض الإنسان بعد أن عرف كيف يزرعها عرف العيش فى بيت .. كان بيته فى ذلك الوقت كوخا صغيراً من الطين أو من فروع الشجر .. ولكنه كان يحمل معانى البيت الكبيرة .. من استقرار وأسرار وأمن وستر وراحة وحرية .. فى البيت وحده يستطيع الإنسان أن يتخفف من أى شىء .. وكلما كبر البيت مع مدنية الإنسان وتثبيت دعائم الأسرة وتوطيد معنى « الأسرية » اتسعت هذه المعانى فوسعت كرائم الإنسان كلها وفضائله حتى لقد غدا أبلغ المدح عنده أن يقال (فلان من بيت) ..

البيت تربية وأعراق وأصول وأمجاد وثروة وشرف ومن هذا تتكون لفظة (فلان من بيت) فهى كلمة جامعة .. كلمة غنية حافلة ذات طاقة .. لا تؤديها (فلان غنى) أو (فلان متعلم) أو (فلان عظيم) أو حتى (فلان

من أصل) فكل تعبير من هؤلاء محدود بحروف اللفظ لايتجاوزه ولكن (فلان من بيت) جماع هذا كله وهو بعد هذا كله له امتدادات أخرى وظلال وإيحاءات لاتحد .. وللكلمات كالناس شخصيات كل على قدر ما رزقه من طاقات التعبير وعناصر البقاء والتعمير .

فإذا طفت بك بعد هذا فى بيتى فلا تتوقع منى أن أصف لك أثاثا ورياشا يستطيع المال أينما وجد ، أن يشتريه كما استطاع الصانع أن يفتن فيه ولكنى حين أحدثك حديثه إنما أعنى ما وراء الأشياء من دلالات ومضامين .

فى بيتى عوالم شتى فعالم الزهور فى أصصها الملونة كأنها أطفال فى مهودها .. ان كان هذا تشبيها فقد نبع من إحساسى بها . أنى أعاملها كأطفالى أتعهدها بالغذاء والإرواء وأحس حين أسقيها كلما تنفس صبح أنى (أحميها) فتنتعش وتشف وترف وتهتز أوراقها فى رقة وتكاد بعد السقيا أو (الحمام) تطفر من الفرحة . ثم أدعها تلعب مع الأضواء الأولى للشمس وتميس فى النور الأبيض وأهرع إلى مهود أخرى فيها عمرى توزعته أقباسا فأوقظ زهورا كالفتنة الوسنى يشوقنى لغوها وزياطها كلما أخذتها سنة من نوم أوغطت كأنفاس الملائكة فى سبات عميق . وعلى هزات المهد

تستيقظ (حنان) و (فينان) فى زفة من البسمات ، والضمات والقُبل . . تستيقظ صغيرتاى كل فى سريرها . . فإذا المهد فى عينى كون كبير فيه فجر طالع ثم تهزجان من حولى ، كما زقزق عصفور : متألقتين كالنور ، باهرتين كالحور ، عاطرتين كالزهور . . زهورى التى تلعب مع الأضواء والسنا ريثما تخرج وردتان . . من الضحك . . تكركران . . من الفرحة تتواثبان . وإذ تخرجان تغدو الحديقة (الروف) كالجنان فيها من النعيم ألوان . . .

وفى بيتى عش للبلبل هو عرش للجمال يتربع عليه هزار فيضفى على الركن بجمال صوته وأفواف ريشه جمالا منغما ويسكب عليه نغما ملونا فمع سرايا النهار ينطلق ملك الكنار بنغم عذب رقيق كصافى البلور . . أو سلسال الفضة فى نبع سعيد . . فيكون غناؤه كالمقدمة الموسيقية إذ يصحو البيت وتشيع فيه تحيات الصباح ريا كأنفاس الأحبة ، موقعة كالنغم الجميل المنبعث من القفص الأنيق فى الحجرة الزجاجية الذى يطل منه المايسترو الصغير كما أسميه بريشه الأخضر الزاهى من نضارة وغضارة كأنه قادم من الجنة فى رحلة سياحية إلى جنة الدنيا .. مصر النيل . . .

ولعل ابنتى الطفلة تحس هذا المعنى بنقاء فطرتها فهى

تعامله معاملة الضيف بإعزاز . . وإكرام ومحبة وهو شغلها الشاغل فهى لا تبعد عن محيطه إلا ريثما تعود . . يحلو لها أن تقدم إليه الغذاء . . . وتنظف له مصافى الماء وتقلدها أختها الصغيرة التى تحتال فى الصعود على النضد تحته وتشب على قدميها لترنو إليه عن كثب ترقب حركاته وسكناته وتفسرها بما تمليه عليها الأخيلة والأوهام . وكم لها فى هذا الباب من قصص ونوادر تطرف وتروق . . .

وفى بيتى مجمع الصفوة الأعلام حيث تقوم أهم الحجرات جميعاً وفيها كتب قيمة . وهل المكتبة إلا صفوة من أهل الفكر والفن تطل أرواحهم من خلال كتبهم وكأنها كنوز مخبوءة تكنها الرفوف وتنم عليها السطور ولكن الإفشاء هنا — على غير العادة — فيه نماء للعقول والأفكار ، وفيه غذاء للسمع والنظر ، وفيه ترف من طراز آخر جد رفيع ، وفيه شرف المستعز ، به ، أبدا منيع . . قد تديل الأحداث والظروف من ألوان الثروات ولكن ثروة الفكر باقية فى مأمن من الحدثان . . من الكفران . . من الإنسان منذ ضمن الله لها الخلود يوم أقسم بالقلم وما يسطرون . . هنيئاً لهم حملة المشاعل . . أى الأقلام . . الصفوة الأعلام . . البررة الكرام . . هنيئاً لهم فى الدنيا . . وأكرم بهم فى بيتى .

وفى بيتى صداقات صغيرة متفاوتة الأعمار وهى على صغرها ربانية لا ترث ولا تحول . . إنها حياة القلب ، وقبلة السعى ، وشعلة الروح ، وهدف الطموح ، وأمل الأجل ، وزاد العمر كله . . إنها عمران . . إنها . . . إنهم أولادى أصدقائى الصغار . . وأحبائى الكبار . . إنهم مصابيح بيتى . . إنهم وجودى النفيس وكل ما عداهم من عروض الدنيا مهمـــا غلت وعلت ، لا يساوى شيئاً حين ترجح كفتهم عند الميزان ، بلامقابل ، كل الرجحان . . .

وهذا الركن من بيتى أدفأ أركانه جميعاً . . إنه عالم من الخفقات واللمسات والبسمات والقُبل . . . عالم شفاف رفاف كأنه صيغ من الحدق والمهج . . فكل مافيه جميل حتى الهمرجة والزياط حتى العولات والبكاء فإذا استحالت العوله إلى بسمة ترف على الشفتين واللمى ، وتملأ قلبين هنّا ، وتسعد إنسانين وتضىء حياتين غدا بيتى جنة من الهناءة تزيد العمر وتغنيه وتبهج القلب وترضيه ، وتهدهد الجهد وتزدهيه فيعذب الكفاح ولو استحال صراعاً ، ويطرب النجاح ولو كان شعاعاً . . يومض ولا يضئ . .

وهذا الركن من بيتى منبع ثر للقصة . . . للفن . . . للأمل . . للخيال . . . للأوهام أيضاً فهـــذه القطعة

من الجنة لا يرنقها إلا خوفى عليهـــا ، ولا يرهقها إلا هواجسى وأوهامى . . فإذا هربت من الأوهام وانطلقت مع الأحـــلام والمنى والرجاء رأيت فى ابنتى عروساً تتألق فى الثوب الأبيض والطرحة ، وتشرق بالجمال والفرحة وتتخطر فى موكب من الضياء والموسيقى تحرسها كالنعمة ، عناية الأهل وتحفها كالخير ، رعاية الله وتلفها كالقلب ، شغاف من ابتهالات الأبوين ودعوات الأحبـــة وتحوطها كالملكة ، سرب من الصبايا الغيد ، وتزفها مع الشموع الزغاريد فأبتسم دون أن أدرى وتسألنى الصغيرة اللاهية فيم ابتسم فابتكر لها الجواب . .

غلبتنى أمومتى فذكرت شيئاً ونسيت أشياء هل أغفل أنا التى كافحت وكابدت ، وصابرت وثابرت أن أتمنى وأعمل وأكافح لتصل ابنتى إلى ما وصلت إليه ثم تزيد هى وتأتى بجـــديد . . يكذبك من يقول لك . . إنه يتمنى . . لغيره من الخير فوق ما يتمناه لنفسه أيا كان هذا الغير رفيقاً أو صديقاً أو شقيقاً ولكن الأم والأب إذا تمنيا لولدهما أن يبزهما ويتفوق عليهما فذلك الصدق الذى لا ريب فيه وذلك قول الحق الذى لا يمترى فيه أصحابه ولا يراءون . .

كم طاف خيالى مع ابنتى فى أبهاء الجامعة وقاعاتها فرأيتها تدلف إلى الحرم الجامعى ثابتة الخطو عالية الرأس ، مشبوبة الأمل ، متفتحة الرغبة ، متقدة الذهن ، صافية النفس ، مرهفة الحس ، قويمة الخلق ، كريمة على نفسها وعلى الحياة والناس .

كم طاف خيالى مع ابنتى فى الجامعة فرأيتها كما أشتهى تبز أقرانها من الشباب بله الفتيات وتسبقهم إلى الغاية وتسجل للمرأة المصرية نصراً جديداً أو نصراً فريداً كما أتمنى . . نصراً يمحو ما تبقى من (اللعنة) التى تهبط بالبنت فى بيئاتنا الشرقية إلى مستوى تنزه عنه أخاها وتعلو به درجات . ومن عجب أنه يظل متربعاً فى دست الأفضلية حتى ولو ساندتها الأيام . . وحالفها الحظ فتفوقت عليه فى التحصيل ، وتقدمته إلى العمل ، وبزته فى الإنتاج ، ورزقت دونه الموهبة . وبعد هذا كله تشى تصرفات الأهل ومعاملات الناس بأفضليته فى عرفهم وأسبقيته فى تقديرهم بحكم رواسب السنين ومتوارث العادات والتقاليد :

كم طاف خيالى مع ابنتى فى مجالات السبق والتبريز . : فرأيتها تدحض بعلمها عن كفاية المرأة الأذى ، وترحض

بتألقها عن قدراتها التهم ، وبجلو بفضائلها وكرائمها عن صلاحيتها الشكوك . أنا لاأعنى أن تظفر ابنتى بمركز ممتاز أو وظيفة لامعة فقد نفذنا بالفعل إلى الوظائف الكبيرة واجتزنا نحن أمهاتها الحواجز إلى المراكز المرموقة اللامعة ولكنى أناشدك يا سماء أن تزفى الكثير من مواهب النفس والعقل إلى ابنتى لتفتح فى دنيا الخلق والابتكار فتحاً جديداً يثرى العلم أو يطرف الفن أو يخصب الأدب . . فتحا جديداً تشرف به فى وطنها . . بل يشرف به وطنها بين العالمين .

وفى انطلاقة أخرى من انطلاقات الأحلام أرى ابنى الصغير . . ملكى الكبير . . مموقاً مرموقاً فى وطنه كما هو فى بيتى . أراه رجلا قد تجسمت فضائل وطنه فيه وتجمعت عنده مزايا بلده العريق وهولها إهاب . . كالكتاب ، إليه يرجع أهل الرأى . . وفيه ترجى محجة الصواب .

رجلا عفّا شفاً خيّرا نيّرا تتعلق به الآمال والمطامع . . تتعلق به العيون والقلوب والنفوس جميعاً .

أراه . . أرانى على وشك الخروج من البيت فإن

آمالى المعقودة على . . على ولدى بحر لا شاطئ له من الصور والأحاديث فلندع الأحلام الآن إلى العالم الواقع لنتعمق معنى البيت .

وحينا أخرج من دنيا الأحلام إلى عالم الواقع فأتعمق معنى البيت . . معناه فى إحساس المرأة ومعناه فى نفس الرجل . أرى البيت بالنسبة إلى الرجل ، الراحة بعد التعب ، والواحة بعد سير طويل فى صحراء الحياة بحرّها ولغوبها وضناها . وهو معنى مسعد فيه من برد الظلال ، وصفو السلام ، وعذوبة الابتسام وهدوء الاستقرار ووداعة الطمأنينة . . ولكن البيت بالنسبة إلى المرأة عزها الغالى وأملها الحلو وحرمها المقـــدس وحبها الكبير . . قد يكون لديها من الخدم كثير ولكنها لاتفتأ تلمع هذا الركن وتجمل ذاك وعملها هذا لون من التعبير . . من الحب . . من الرعاية لعزيز . . . إن قطع الأثاث هنا حيوات يتسع لها قلبها . ولهذا يبدو البيت وفيه شخصية صاحبه وعليه طابعه . . وبعض البيوت يعطيك هذا المعنى وبعضها مكرور لا طعم له ، عيي لا يعكس معنى ولا يترجم قصة . . إن هو إلا برهان على طاقة صاحبه الشرائية وهذا بالطبع لايدخل فى باب

العبقريات . . عبقرية الذوق أو عبقرية الفن أو عبقرية الخلق أو عبقرية التكوين .

إن البيت فى رأى المرأة ويقينها إيذان بالمسئولية انتفاء للتبعية . . شعور بالملكية .. إحساس بالكرامة .. بالرشد . . بالثقة . . . بالحياة .... إنه المجال الذى يتسع لتدبيرها . . وينفسح لرغباتها فرأيها فيه مسموع وقولها نافذ .. إنه عزها ومجلاها .. إنه الجنة .. قد يلهى الرجل عن البيت – على تقدير له – النجاح فى العمل أو البسطة فى الرزق أو زمر الأصدقاء أو بهرج الحياة خارجه ولكن المرأة لا يصرفها عن البيت شىء فى الدنيا .

أستطيع أن أوكد هذا فأنا مثلا قد ينتزعنى من بيتى اجتماع هام أو حفلة لامعة . . وقد يصحبنى زوجى إلى متعة من متع الحس أو الروح ولكن شيئا من هذا لا يستغرقنى الاستغراق كله فأنا معه أو مع الناس أشارك فى الحديث وفى السرور ولكن حنينى إلى بيتى ، ولما يمضى على خروجى منه بضع ساعات ، يسرى فىَّ ويشارك من خلالى فيما نحن فيه حتى إذا قوى واستبد لفتنى سهمة يلمحها زوجى ويبتسم وكأنه يقول . . قريبا نعود .

ليس هناك شىء فى الدنيا يعدل الأمومة والبيت عند المرأة وإن تشاغلت عنه أو تظاهرت بالزهد فيه .. قد تبلغ أقصى

النجح وقد ترقى إلى عليا المناصب وقد تثرى إلى غاية الغنى ولكن هذا كله بدون البيت لا يغنى عنها شيئا وان تكثرت به أو استعلت أو فاخرت إن هذا كله إلا تغطية للقلق الذى يتوزعها والألم الذى يعصر روحها ويهصر عودها فييبس .. و (الخير) موجود أو يجف والرى شامل . إن البيت بالنسبة إلى المرأة كل شىء وكل ما عداه إن هو إلا عرض يؤدى إليه أو وسيلة تعين عليه أو تعزيز يجذب إليها . . الرغبة أو يجمع حولها الطلاب حتى تضع قدمها على درج العرش المأمول والملك المنتظر .

والبيت بالنسبة إلى الأبناء الحماية والجاه والوفرة وحنان الأم وعز الأب . والأصل الذى يتفرعون منه والجذر الذى يمدهم بالغذاء والبناء . . إنه الساعد الذى يتكئون عليه والحب الذى يركنون إليه والصدر الذى يدفنون آلامهم فيه . إنه الجناح الذى انبسط عليهم من رحمة صغارا ثم دربهم على التحليق وبات همه أن يرقبهم ، وهو يخفق من أجلهم ؛ فى تصعيدهم إلى القمة .

كم للبيت عندى من معان وقيم يستوعبها قلبى ويضيق عنها مقالى لأن القلب أكبر من اللغة أو هكذا أحس أنا فى زحام المعانى الكبيرة .

وقد أصلت الحضارة بوسائلها . المعانى البيتية فأفراد الأسرة يستطيعون أن يجتمعوا على متعة مشتركة من راديو أو سينما أو تليفزيون . . وهذه الحضارة نفسها فرقت المعانى الأسرية فغلبة المادة عليها طغت على العواطف وكادت تغلفها، كما أن الصراع الذى تتطلبه هذه الحضارة فى سبيل الرزق طوح بفرد أو أكثر من أفراد الأسرة فى جهة من جهات الدنيا يدفعه الطموح وتلهبه الرغبة فى الإثراء والاستعلاء .

والبيوت ألوان بيت فيه مكتبة وبيت طابعه التقى وبيت شيمة أهله كلهم الرقص . .

وإذا كانت البيوت أنماطا . . فإنها أيضا عصور . . فبيت تضيئه الثريات وبيت ترقص فيه من الألم ذبالة مصباح . . .

وهى أيضاً نماذج وطرز فى البناء والأثاث ووسائل العيش وأساليب الحياة .

والبيوت مذاهب وطرق فى العادات والأخلاق والآراء والأفكار .

والبيوت فى الحظوظ مراتب وأقدار فبيت يتفيأ الظلال ويستروح العبير ويتدفق بالخير ويميس فى النور ويفيض بالسرور وينعم بالهدوء والخفض والدعة . . وبيت يتسربل

بالظلام ويتستر بالليل . . فإذا طلع النهار كشف من سوءته مابات يدارى ، وأظهر من عورته كل ما يوارى وعبثا يخدع تجمله الناس أو ينطلى تعلله على العارفين .

مراتب وأقدار . بيت مجدود . وبيت مكدود مجهود . . بيت سعيد بالحب وبيت بلا قلب . . . مراتب وأقدار . .

أمعنت فى سبحاتى فهيا نعود إلى بيتى حيث يحلو الحديث ويروق ، ويطيب الجلوس ويشوق . . هناك فى كل ركن قصة ولكل شىء تاريخ . . كل ركن فى بيتى عليه ريح يدى ولمسات أصابعى . . كل ركن له قصة معى . . فهذه القطعة من الأثاث شهدت عرسنا . . وتلك أعدت لتستقبل طفلنا وهذا الكرسى حمل تعبى . . وهذا القلم كم قرأ معى وكتب ووعى ، وهذا النضد كم سهرنا معاً . . وهذه الشرفة كم أطلت علىّ فى رواحى ومغداى . . قصص كثيرة تنتظرك . . . فى بيتى .



في الريف

بدأنا الرحلة إلى الريف فى صباح اليوم الثانى من أيام العيد . . تحرك جمعنا والقاهرة تتثاءب أما الزمالك فقد كانت نائمة أو لعلها مستيقظة ولكنها مسترخية تتمطى من الكسل أو السهر . لم يدب النشاط بعد إلا فى باعة الصحف وسائقى التاكسى . . وبعد ثلث ساعة بدأ طريق الإسكندرية الزراعى . . كل شىء فى الريف كان يقظاً بليلا كنسمة الصباح . . كانت الأغصان الكبيرة تخرج منها الفروع الصغيرة على جانبيها وتحمل الأوراق كالفلاحة المصرية لا تقع عليها العين غالباً إلا حاملة طفلا . . إنها مثلها ولود ودود . . كل شىء هنا يلفه جمال وحنان وتفاؤل ورجاء وهدوء ساج موقع الصمت . . صمت من ذلك النوع الذى يستغرق النفس أو تستغرقه وكأنها فى سبحاتها مقطوعة مؤتلفة من النغم الجميل أو مجموعة متساوقة من الشدو الرقيق .

كل شيء فى الريف كان فرحاً باليوم الجديد . . الماء فى الترع يجرى . . إنه يجرى دائما لا يفتر ليل نهار ولكنه فى الصباح كان يبدو كمن يستأنف الجريان فى شوط بعيد .. الأعشاب على حوافها تهتز اهتزازة رقيقة كمراوح الأنيقات والنسيم يمرح خفيفاً منعشاً ويهبط على ذراعى المنثنية على نافذة السيارة وكأنه طفل حلو الشقاوة ، تعب من عدوه وزياطه فارتمى بثقله كله على ذراع أمه التى ترقص فى داخلها لسعادته الهانئة الطروب . . كان النسيم يرتمى على ذراعى بارداً له لسعة شقيه تطرد باقى الكسل وتنبه الحواس كلها فتتفتح بلورها تعب من النسائم الجديدة وتستقبل اليوم الجديد .

عيون البقر كانت حالمة متكسرة ينم تفترها عن الوسن الغريب فهى مفتوحة الجفون ولكنها بنظراتها بين اليقظة والنوم — وهذه عادتها حتى فى ألق الضحى — البقرة تقف متمطية أو تسير إلى جانب الفلاحة أو فى الساقية كما يسير الإنسان فى النوم هل هو الإجهاد أم التدلل ؟ . . إن الفلاح يحب البقرة ويؤثرها بإعزاز . . إنها ملكة حيوانه وهو حين يستعين بها فى الأعمال الثقيلة يفعل هذا ثقة بقدرتها ونفعها لا ابتذالا لها . . والحيوان فى عالمه الخاص درجات كالإنسان

والأشياء أيضاً . . فالجاموسة تبدو متقشفة خشنة على عظيم مزاياها وكأنها اقتبست من الفلاحة المصرية بعض أوصافها حين تبدو البقرة ولو بالقياس ناعمة دافئة كالإنسان الحساس ولأمر ما اختارها الفراعنة رمزاً للأمومة . تستطيع أن تقارن بين المشيتين . . . الجاموسة خطواتها غليظة مفرطحة ولكن البقرة أحن وطأ للأرض وكأنها ناهد تخطو إلى عالم المرأة فى استحياء يمازجه الفضول والشوق إلى الجديد المجهول .

الحقول الخضراء استيقظت مبكرة تتلألأ فوقها فى وهج الشمس ، القطرات البيض .. قطرات الندى .. وقطرات السقيا . لشد ما يأسرنى اللون الأبيض واللون الأخضر هذا على عروس تتخايل فيه وهذا على أرضنا الطيبة .. إن الأخضر هنا فى الريف دنيا من الألوان والمعانى فخضرة زاهية طفلة .. وخضرة ناضجة شابة .. وخضرة قاتمة تضرب إلى سواد .. وخضرة فاتحة منتعشة ضاحكة تكاد وهى فى مكانها تتواثب من الفرح وتطفر وتطير .. وخضرة يمازجها اصفرار .. وخضرة يكسوها على البعد بياض خفيف .. وخضرة يمازجها احمرار .. بدع بين الألوان ، اللون الأخضر .. حقا تتدرج من الأزرق ألوان ومن الأحمر ألوان ولكنها ليست فى وفرة وتنوع وغنى وشمول ورقة

اللون الأخضر .. إنه بينها جميعاً كريم كالخصب .. نبيل كالخير .. هانئ كالنعمة .. سابغ كالظل .. متموج متجدد عريق كالنيل الذى يجاوره ويجوده ويتفنن فيه .

هنا السماء عذبة الصفو . . عذبة الابتسام .. الابتسام الذى يشرق فينفذ إلى القلوب ويسطع عليها .. والابتسام كالناس شخصيات وأنماط .. ابتسامة تعدى بالافترار ... وإبتسامة تغرى بالسعادة .. وابتسامة تومض بالضياء .. وابتسامة توحى الصفاء .. وابتسامة تهدى الحب .. وابتسامة تسعد القلب . . وابتسامة تقهر الشر .. .. وابتسامة تزرع الخير ... وابتسامة غازية تفتح مغاليق الأمور . . وابتسامة ساحرة تفك ألغاز المشاكل فتجد عندها الحل وابتسامة بهرج ولارواء .. لمعان ولا ضياء ، مجرد انفراجة مقصودة كانفراج الذراعين بقصد الدجل أوالتهريج لوصح أن يكون هذا قصدا أو غاية .

حتى الشمس التى قد نسير فى ضوئها بالمدينة ، لاهين عنه حتى لا نكاد نحس بها . . هنا فى الريف تبدو شيئا آخر . . إنها هى على حقيقتها . . كنز من النور تراه قريبا وهو بعيد لا تبلغه الرحلة ككنوز الأساطير ولكنه على البعد يجود للناس كلهم أبطالا وغير أبطال . . إنها كوكب مرتفع

مترفع أيضا يعطى بغير سؤال ولا يفرق فى العطاء . . . . إن ضوءها يوشوش الأكواخ أمامى كما يدخل القصور التى خلفتها ورائى فى الزمالك .. ولأمرما أنث العرب الشمس .. إنها كقلب الانثى كبير يلذله المنح والعطاء . . وكالعظيم الوهاب لا تسلب الناس شيئا بل تزيد موجودهم وجودا وتدعمه . إن ما تذهب به من بحورهم ترده إليهم أمطارا فيها لهم حياة بل منها كل شىء حى .

واستولى الجمال والبهر على ابنتى الصغيرة فعبرت عنه بطاقة لغتها كلها .

— هما الفلاحين بيملكوا الشمس يا ماما ؟

معذورة صغيرتى . . إننا فى المدينة لانرى الاتصال بين السماء والأرض والشمس فى ملحمة خالدة أو سيمفونية رائعة كما نراها فى الريف . . هنا دنيا عريضة مفتوحة لا يحجب الشمس فيها والسماء وفضاء الله ، أبنية عالية أو جدران سميكة غليظة . . إن بيوتهم أكواخ من الطين متناهية فى القناعة والبساطة ولكنها للنوم فقط أما نهارهم وأول الليل فبين الماء والشجر والهواء ... عيونهم ملأى من الخير حتى ولو لم يملكونه .. إنهم دائما يذكروننى بالعبارة التى نرددها فى المدينة « اللى تطبخ تشبع » .. هنا يبدو أن الذى يزرع

يقنع :. قد تكون الفلاحة جائعة وتردد لأدنى مناسبة « الخير كتير » كما تردد الصعيدية فى مثل قناعتها وغناها النفسى : « الخير واجد » ... « الخير واصل » متجملة مستعلية على الحرمان وفى عينيها التياح غير خاف وفى صوتها جهد غير مكتوم .

هنا الطبيعة غادة سافرة ولكنه السفور الذى يستهوى ويأمر معا فيعلو كثيرا — ولعله فى هذا المجال فقط — على الحجاب . إن الحجاب بمقدار قد يعزز الجمال فى الناس ، ولكن الجمال فى الطبيعة يدين بدستور آخر . إنه يستعلن بالسفور ويسيطر ويستبد .: والناس تمقت كل طاغية مسيطر مستبد من البشر ولكن الجمال إذا تجبر واستبد ، تهواه .. إنه سره وحده .. لا يستطيع الإنسان أن يشائيه .. مسكين هذا الإنسان ضعفه فى قوته التى تغريه بالكبر والغرور . أو الوسوسة والشكوك حاسبا أنه كل شىء فإذا بمعنى جميل معين مجرد ليس له قوام ، يغلبه على حب الناس وأسرهم :. أسرهم بالوداد والراحة والرضا فيبلغ منهم مالا يستطيع أن يصل إليه هو بالقوة المدعاة أو القهر والتحكم .

ليت أهل الفنون يخرجون من حين إلى آخر إلى الريف . . مجلى التأمل والاستشفاف للرسام والمصور

والشاعر كم من صور وحيوات ومعان استغرقت خاطرى وشعورى على الطريق الطويل الجميل .

إن عدد الفلاحات على الطريق أكثر من عدد الفلاحين . . والفلاحة دائما هادفة أعنى عندها ما تعمله أو تسعى إليه . . قلما تراها تمشى متخففة . . إنها غالباً تحمل شيئاً بل أشياء تمشى .. جسمها . . ذراعاها . . ساقاها خطوط نحيلة مستقيمة منسابة مرفوعة الرأس رغم ما يعلوه من حمل ثقيل ولكنها تمشى فى خبب واسعة الخطو كأن لم يثقلها شىء . . وهى قلما تكتفى بحمل الرأس فهى تثنى ذراعها لتحمل بين دورانه حملا آخر مستندا إلى ضلوعها أو تحوط به ولدا مستلقيا على صدرها . . وقد يكون قد تجاوز عامه الأول أو الثانى ولكنه فى نظرها خفيف مثل الريشة ! ما أطيبها وما أحناها .

. . استرعت عينى على الطريق طفلة صغيرة تسير فى انسجام كبير إلى جانب حمار صغير كأنهما تلميذان يهرولان إلى المدرسة . كانت . . نظراتها جادة كخطواتها . . إنها فلاحة صغيرة فيها من أمها مواهب الصبر والكفاح . . إن الفلاح وبنيه يحبون . . حيوانات الزراعة حبا جما . .

إنهم يألفونها ويصحبونها كأنها أفراد من الأسرة . والقرية عامة أسرة كبيرة الناس بعض أفرادها والبعض الآخر : الحقل والماء والشجر والجاموسة والبقرة والحمار والكلاب والدجاج والعصافير . . هناك تعارف تام بل وانسجام بين الفلاح وبين هذه الأشياء جميعاً .

وعلى جانب من الطريق جلس رجل القرفصاء منطفئ النظرات بليدها وعلى بعد شبر منه لوح من الثلج قد طارت منه قطعة فى حجم الكرة المتوسطة فما كادت تنسلخ عنه حتى لحقها ما يلحق المتمرد الشارد من ضياع . صهرتها حرارة الشمس فى الحال فذابت ماء يتلوى على الأرض حين تماسك باقى اللوح فى جمال لا يشوبه إلا أثر الجرح . . والرجل يناقل نظراته بين الثلج الباقى والثلج الذائب فى استسلام عجيب إنه صورة . . للتفويض . . صورة لضحية من ضحايا القدر على تفاهة ما ضاع منه . ولكن لوح الثلج حين سقط منه هز نفسه على كل حال وأورثه هذه الجلسة الصاغرة أصلح ما يكون صورة . . (للتسليم) .

ولكن لماذا يسلم الغبى هكذا ؟ أما كان الأجدر به أن يستأنف طريقه ويضاعف مجهوده ليعوض ما ضاع منه ؟ إنى لا أرثى له ولا أحترمه وأحسب الحياة كذلك لا تعبأ بالمتخلفين أو المستسلمين . . إن الاستسلام جمود . عدم ما هو الموت ؟ أليس تسليم الروح ؟ حين تعنى الحياة الحركة . . المغالبة . . تفتيت الصخور إن استعصى سحقها دفعة واحدة . إن الماء يفعل فى الجبل والنار سواء أهمى فوقها دفقة دفقة أم تنزّل عليها قطرة قطرة .

وعلى الطريق رأيت جاموسة وحماراً متجاورين فى هدوء على حافة قناة صغيرة تلمع فى الحقل وقد سكن كل منهما إلى الآخر . ما الذى جمع بينهما على اختلاف فى الفصيلة والخلقة ؟ العطش ؟ ولكن « القناية » طويلة يمكن ورودها من أمكنة متفرقة . . إنه الحقل . . حقولنا الخضراء . . إنهما زميلا عمل أو زميلا الفلاح لاغنى له عنهما . . إن بينه وبين هذه الحيوانات علاقات قوية وخاصة الجاموسة التى ينزلها من داره مكانا يلفت النظر . . إنه يرتاح لقربها كما يرتاح كل صاحب مال وهو يرى ويلمس ما يملك . . وهو يأسى لبعدها بما ينذر

به من فقدان وحرمان . . إنى لا أنسى الصورة التى رسمها الأستاذ يحيى حقى للجاموسة تحتضر وصاحبها ينظر إليها عبران لا يستطيع أن يدفع عنها ولا يستطيع أن يطب لها ولا يقوى على ذبحها ما دام فيها ذماء من روح حتى إذا بدت نذر النهاية ثم أطبقت هرب من هذا العمل ليقوم به الجزار الذى يخفى سكينه فى انتظار اللحظة الحاسمة البغيضة إلى الجاموسة وصاحبها . ما أكبر قلب الفلاح وما أوفاه هذا المحروم من العلم ، العاطل من الجاه والمال ولكن صفات النفس فيه أكبر ومواهب القلب فيه أكرم . . إنه يقدر الجميل ويكبره مهما كان مصدره . إنه يفى للحيوان يعاونه فكيف به لو أن الخير آتاه من إنسان ؟ ليتنا ننصفه .

. . وعلى الطريق رأيت الشجر منه ما حل ذوائبه ليغمسها فى الترعة ومنه الذى انتصب كأنما فرغ من غسيله وترك للشمس مهمة التجفيف . منها ما يلامس الماء كأن به ظمأ لا يبل فهو لا يرفع رأسه عنه . ومنها المدل الذى لا تتعدى علاقته بالترعة علاقة المحبوب بعاشق عميد فهو يلقى عليها ظلاله فى عزة المدلل ووثوق المعشوق ومنها ما يميل على

الترعة فى حنو بالغ كما تميل أم بكيانها كله على مهد وليد . . عالم غنى عالم الماء والشجر . . فى الطريق الزراعى أشجار جللتها الزهور الحمراء فى لون الفراولة فلا تتردد (حنان) فى نسبة هذه الفاكهة الرقيقة إليها .

— الشجر ده . بيطلع فراوله يا بابا ؟

ومن بعيد على أطراف الحقول كانت تبدو لعينى أشجار كأنها صفوف مستقيمة صفا وراء صف ولكنها فى تراصها كان قصيرها يجاور الطويل . . كاسيها يسامت العارى . . ماتفها يواكب النحيل فى ديمقراطية رائعة تتمثل بأجلى صورها فى المسجد . . هناك فى بيت الله حيث لا يفاضل الإسلام بين الناس بالرتب أو المهن أو الألقاب . . السابق يأخذ مكانه فى الصف حسب أسبقية حضوره لا فرق بين أجير وأمير . . هكذا يعامل الله عباده فى بيته . . سماحة مظهرها فى الطبيعة هذه الأشجار المتجاورة من بعيد . . تستطيع العين أن ترى الديمقراطية فى ساحة الله أو فى باحة الطبيعة .

إنه طريق محظوظ نفحته الطبيعة ولمسته يد الإنسان وأجلى آثارها فيه « الجسور الهرمية الحديدة » . كنا نرى

العربات أمامنا تصعد الجسر فى بطء شديد يثير قلق الناظر من خلف خاصة من كان فى طريقه إلى الصعود ، حتى إذا بلغت منتصفه أو قمة الهرم بدأت . . أصغر من حقيقتها كثيراً فما تكاد تنزلق على الجانب الآخر حتى تغيب عن العين ولم تتجاوز المسافة بيننا أمتار حتى إذا جاء دورنا وعلونا الجسر رأينا تحتنا على الجانبين منظراً عجباً . . خضرة متوسعة زاهية تتضوأ من الألق والنضرة . . وفى منتصف الطريق تقارب جسران فكنا نصعد لنهبط ثم نصعد من جديد لنهبط من جديد مرة أخرى وكأن الطبيعة أرجوحة جميلة ملونة تعابث أطفالها الكبار تصعد بهم وتهبط وكل منهم مشغول عن رفيقه تلفه ابتسامة واسعة غير منظورة روىّ الحس بنشوة لذيذة تستغرق حواسه كلها . . كان زوجى يخرجنى بين الحين والحين من رؤاى على وقع كلمات طفلتنا الصغيرة وتعليقاتها المضحكة على المرئيات من ناس وحيوان ، فالجمل حصان ، والحمار كلب . . كانت تعير بعض الحيوانات أسماء البعض الآخر فى إصرار واثق حتى لتصحح لأبيها ما يحاول أن يلقنه لها مخالفاً لما تقول .

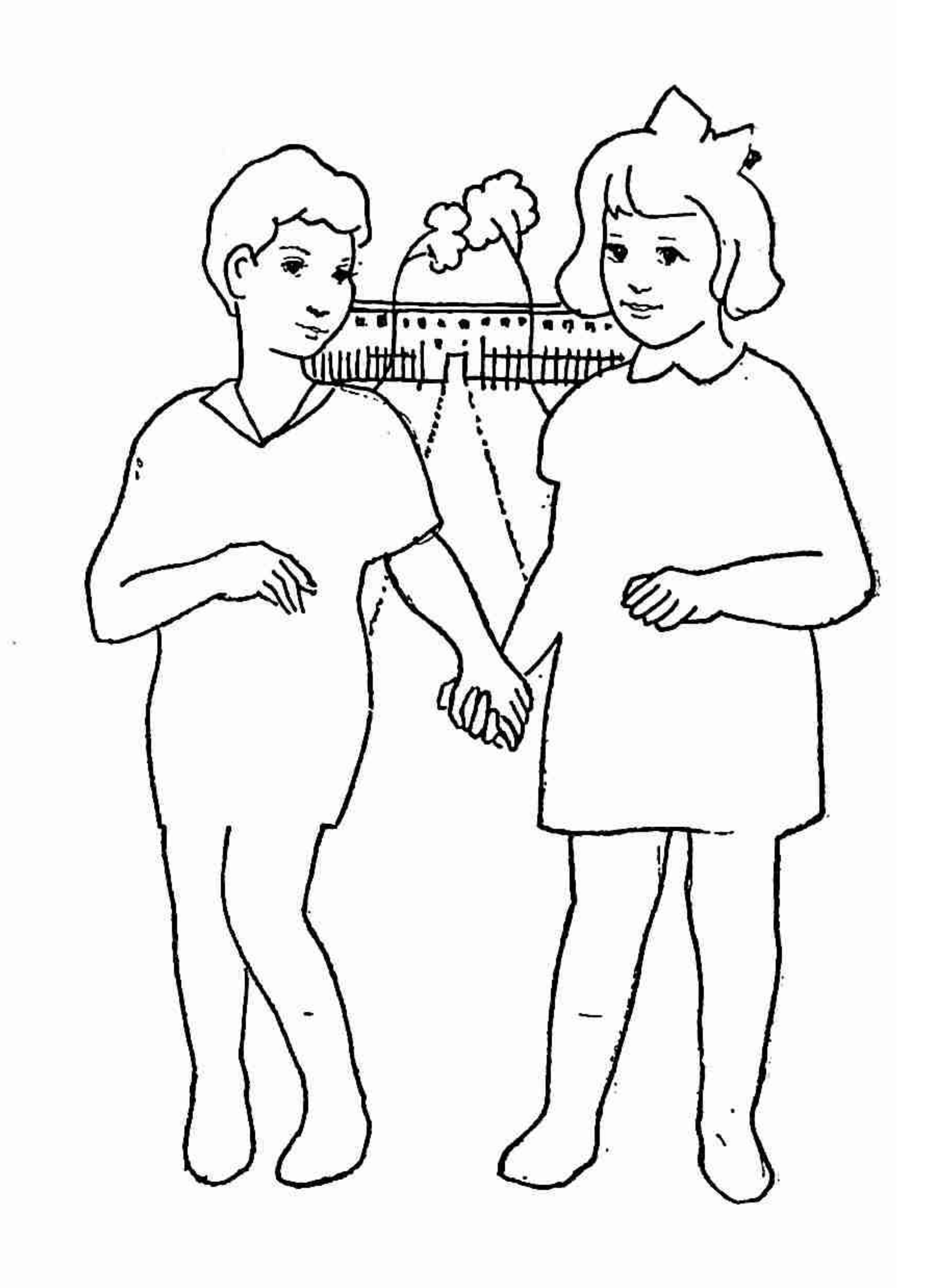
كنت أشارك فى هذه المناقشات المنعشة لحظات ثم أعود إلى طريقى الأخضر ، الشعير تم نضجه فاحمرا . . كان أجمل كثيراً من اللون الذى تهيم به الفاتنات وتسميه « الهافانا » ولكنه كان يجمع بين هذا اللون وشىء آخر . كأن ضوءاً بنفسجيا ينعكس عليه من بعيد فاذا الظل المنعكس بنفسجياً فاتحاً حالما تحيط به اليقظة من كل جانب فيبدو غريقاً فى الأحلام .

الساقية تدور كما كانت تدور منذ آلاف السنين . . إنها لا تهرم ولا تشيخ كالإنسان . . ذهب المصرى القديم صاحبها وبقيت هى . . إنها لا تتبدل كالموضة والأزياء ومع هذا لاتسأمها العين بل تتعلق بها بجاذب خفى لعله عذوبة الذكرى .

الشادوف هو هو والنورج والطنبور وصوامع القمح . . رسائل عطرة من مصر القديمة ما زلنا نقرؤها ونعيدها . . إنها مصر أبدا . . مصر القديمة تعيش فى حاضرنا آلات زراعة فى القرية أو طراز بناء فى المدينة . . تعيش فى فكرة أو عقيدة أو رأيا أو شعورا أو حتى رواسب فى العقل الباطن . . تعيش فى ذاكرتنا تاريخا . . تعيش

فى قلوبنا هوى . . هوى عميق ندى يلف صمته على شوق يتنفس فى تملى آثارهم . .

ألا ما أطيب ريفنا وما أروحه للنفس . . للقلب . . للروح . . للعقل جميعاً . . أنا ما زرته مرة وانثنيت راجعة إلا تذكرت الشريف الرضى حين عاد من بغداد وسأله العائدون : ما تشتهى ؟ فقال : أن أعود . . .



في المدرسة

في أول أكتوبر من كل عام تتدفق الشوارع والطرقات بسيل من الأبناء والبنات تلاميذ وتلميذات المدارس المختلفة ؛ لكل شارة ، ولكل زى خاص ولكل طابع ولكل وجهة .. فتعلن جموعهم المستبشرة مستهل السنة المكتبية أو مقدم الربيع الإنسانى كما أسميه ربيع الآمال والأحلام . . ربيع الزهور الحية .. إن كل ولد أو بنت من هؤلاء الساعين إلى المدرسة عز أمه وأمل أبيه .

زهور جهيرة الصوت طليقة الحركة سريعة اللفتة ملونة التعبير .

زهور إلا أن عطرها من نسيم خاص . أنا ما نظرت إلى طفل إلا تمتمت فى سرى بقول تلك الأعرابية التى أخذت ترقص ولدها بقولها :

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى فى البلد

نعم يا سيدتى . . وإن كنت لا أعرفك لفاصل السنين

والأجيال – ريح الولد ريح الخزامى فى البلد – . . لا . . إنه أرق وأطيب وأعمق من الخزامى والرند والزهر والورد مجتمعا ومتفرقاً . . إنهم نفس من أنفاس الله وروح من روح الملائكة . . إنهم نور أيامنا . إنهم إشراقة حياتنا . . إنهم سعد حاضرنا . . رجاء مستقبلنا . إن كل ولد أو بنت من هؤلاء الساعين إلى المدرسة عز أمه وأمل أبيه . . ماذا أقول إنهم الحدق والمهج . إنهم حياتنا فى الحياة وبعد الحياة .

وفى أول أكتوبر صحبت صغيرتى إلى مدرستها وما كدنا ندلف من الباب حتى أفلتت يد الصغيرة من يدى وتقبلت منى قبلتى على عجل لتنخرط فى الزحام حيث الصغار من مختلف الأعمار يدبون بأرجلهم على الأرض يركضون ويتواثبون كصغار الخراف فى المرعى يدورون من حين إلى حين حول أمهاتهم فما تكاد الأم تظفر بالعصفور الصغير الجميل حتى تتهلل له وتحنو عليه وما تفتأ الأمهات كلما لاحت الفرصة ، تهمس فى الآذان اللاهية كلمات أغلبها نصائح وإن لم أسمعها ولكنى أعرف بتجربتى مع ابنتى ما يدور بين الأمهات والآمال الحية التى تدور

حياتنا حولها ، فما أكثر ما همست إلى طفلتى . . . وحلا السرار .

. . . ما أغلاهم فلذات القلوب والأكباد . . حياتنا كآمالنا معقودة بهم . . كل الكفاح . . كل النجاح . . كل القُنى . . لهم وما أهنأنا حين نعطى من ذات نفوسنا مخلصين .

وتلفت حولى أختلس النظر إلى أولياء الأمور هل منهم فى مثل لهفتى وولوعى فرأيت الوجوه كالأساليب . . كل وجه يفصح عن معنى أو يضمر معنى . . تعبيرات . . وإيحاءات على تفاوت فى البلاغة والتعبير .

وجذب بصرى فى وقفتى هذه الفتيات من طالبات الفرق الكبيرة إنهن يستقبلن العام الدراسى الجديد بالقبل يطبعها بعضهن على خدود بعض ثم لا يندمجن كالصغار فى القفز واللعب بل فى أحاديث هامة تفسرها ضحكات متفائلة شابة . . ترى هل لاح فى العطلة الكبيرة طيف فارس الأحلام ؟ ما أكثر الرؤى والأخيلة فى طراءة العمر وميسان الشباب .

ثم الفتيان .. عاشوا لذويهم ولمصر أشبال العرين . لقد سعد قلبي بهم وإن لم أعرفهم يمشون فى خطوات ثابتة ورؤوس مرفوعة تعلن عن رجولة مصغرة .. ولكنها واعدة .. وفى الفناء تجمعوا (شللا) تتحدث أيضاً .. لعلهم كانوا يعلقون على حركات زميلاتهم وضحكاتهن .

ودق الجرس .. ذلك الساحر العجيب الذى يطل من عل يأمر وينهى فلا يعصى له أحد بالمدرسة أمراً .. إنه أقوى سلطانا من بعض المدرسين والمدرسات .. عليه تنتظم الحركات وتصطف (الطوابير) أو يطلق من الفصل سراح العصافير الشيطانة .. كم يعى هذا الجرس من تاريخ التعليم فى مصر .. ليت (جماديته) قادرة على التسجيل .

وانتظمت الصفوف وأعلن صمتها المفاجىء قدوم الناظرة . فلما أطلت عليهم كما يطل الخليفة المتوكل فى بيت البحترى ، وحيت السيدة أبناءها تحية الصباح وكأن أفواههم وآذانهم كانت تنتظر منها « صباح الخير » فإنها ما كادت تنطقها حتى رد الجميع فى صوت واحد ممطوط منغم يغرى بالابتسام « صباح النور » .

ثم ترسلت من خلال (الميكرفون) فى سرعة لافتة

العبارات التقليدية : مدرسة انتباه . . مدرسة دغرى . . ويعلم الله كم مرة تكرر « الانتباه » . . و « الدغرى » فى ضغط شديد على مخارج الحروف . . ويبدو أن الصغار ألفوا إشارات الوقوف والسير هذه كما يألف سائقوا السيارات – والطيبون منهم خاصة والنساء – إشارات المرور فهم سرعان ما تصطك أحذيتهم – على الأثر – فى حركة عسكرية لا تعوق أفواههم الثرثارة عن الإسهاب.

ولكن أمراً واحداً من هذه الأوامر شدنى إليه حين قال الصوت : « تحية العلم » وهنا ارتفعت أيدى كثيرة . . صغيرة وكبيرة فى تحيتك يا علم . . وظلت الأيدى بالجباه معقودة . . كالآمال معقودة بك يا علم .

وشخصت النفوس إليك يا علم ورنت الأبصار وأنت ترتفع على السارية حتى إذا بلغت مسراك واستويت فى علاك هتف صوت قوى جاوبته أصوات ناطقة وصامتة :

[الله أكبر العزيز القوى ، والعزة للوطن العربى ، ولتحيا الجمهورية العربية المتحدة] .

وردد الصغار الهتاف الدافئ الغنى . . أتراهم فهموه . . بعضهم على الأقل وعاه . . الكبار منهم خاصة . . ولكن

هب أن الأشبال والزهرات لم يفهموه أو وقفوا منه عند السطح . . فإنه سيأتى يوم يسرى فيه معناه إلى أعماقهم فيصدرون عنه ويستضيئون به ويعيشون فيه .

ما من مرة رأيت العلم يرتفع إلا نشجت نفسى ، ودمعت عيناى . . كم أنا ضعيفة أمامك يا علم . . ما تكاد عينى تلمسك حتى يهتز كيانى كله هزة فرح أو هزة اعتزاز . . أو هزة حب . . أو كل هذه المعانى مجتمعة ومتداخلة . . شعور كبير عميق ذلك الذى أشعر به . . أكبر كثيراً من طاقة تعبيرى .

وآذن الصوت مرة أخرى بالمسير فإذا (بالطوابير) تتحرك وحدات دائرية ومستقيمة فى مثل حركة الجيوش . . نظاماً واستواء ومشية عسكرية .

أما (الطوابير الصغيرة) فقد ترسلت كأسراب النمل تماماً . . كالنمل فى دبيبه وتسلسله . . سربا وراء سرب .

البنات إلى جانب البنين يتبادلون الحديث . . و . . يضمهم الفصل والملعب ، وتجمعهم الرحلة والمطعم ، ويؤلف بينهم . . الدرس والعمر ، ويقرب بينهم الإشراف والخطة . إن ابنتى تنشأ نشأة مختلفة عن تلك التى نشئتها . . إنها

تتكلم عن أحمد ومحمد الخ . . زملائها فى الفصل أو رفقائها فى الملعب أو أصدقائها فى الحى فأبتسم فى سرى . لقد لقنت صغيرة كثيراً من الحدود والفواصل بين البنت والولد فى المعنى وفى الطبيعة وفى التقاليد . . حتى إذا دخلت الجامعة طفت الرواسب كلها على السطح فانزويت منكمشة عن رفقاء الدراسة فى السنة الأولى وألفت الانزواء أو لعلى اعتقدت أنه أسلم فانطويت فى السنين الأخرى وإن كان انطوائى قد خفت حدته كلما سارت الأيام من فرقة دراسية إلى فرقة ولكنه لم يبلغ يوماً مبلغ الاندماج أو حتى الألفة ! ومع هذا كله حمدت للجامعة ما منحتنا من اتزان عاطفى بفضل الاختلاط برغم ما جر إليه البعض من أخطاء أو حتى كبوات . . ضمنى يوماً مجلس مع مدرسات خريجات معاهد نسائية . . كان حديثهن ضيقاً محدوداً يتشاجن ويستطرف ولكنه لا يخرج من باب المدرسة ولا يتفز من السور كالطلبة حتى إذا جاء دور المدرسين فيه ، تخافت وشاع الهمس فيه ، وتظاهرن بالخجل . . لماذا هذا كله ؟ وتتلفت المتحدثة هل من مسترق السمع ؟ كأنها تنطق الخنا أو ترتكب إثماً . . ليس من سبب لهذا

إلا أن المسكينة تنظر إلى الرجل من زاوية الجنس وحده ، وما يتبع هذه النظرة من تعبيرات فى الصوت والإشارة . . وأكاد أقول الجسم كله . . حين تتحدث الجامعيات . . . المصقولات — عن الرجال رفقاء الدراسة أو زملاء العمل بدون هذه الاهتزازات كلها . . حديثاً طبيعياً راشدا . . حديث أنداد . . ولا يعنى هذا أن الجامعية تجردت من أنوثتها ودخلت عالم الرجل مزودة بصلابته وخشونته كما تزودت بمثل نصيبه من العلم وبمثل حظه من العمل والنجاح . . كلا ولكنه الاتزان العاطفى الذى أشرت إليه أو نوهت به .

وفى المدرسة كما شاهدت عينى فى يوم الافتتاح وأحسب أن هذا يتكرر كل يوم .. عرض أزياء فإن هيئة المدرسات تعلن أنهن فى مسابقة أناقة . . والمرأة بطبيعتها تحب الجمال والهندام وتستقصى وسائلهما وأظهر ما يكون هذا بين المدرسات حيث يدعو اجتماع الكثرة فى مكان واحد إلى التطلع والمباراة والتقليد والتفنن . . أما المدرسون فقد ران الجد عليهم فلم يشتركوا فى الحلبة ولعلهم اكتفوا بالمشاهدة والحكم . . والرجال عادة والسوىّ بينهم خاصة

لا يهمه التزين والتجمل بالقدر الذى يهم المرأة أو حتى عشر معشاره يكفيه أن هذه الزينة كلها وما يبذل فيها من أجل استهوائه أو استبقائه . . من أجل الظفر به على صورة من الصور . . ولعل هذا المعنى هو الذى يغريه بالإنفاق على الزينة زوجا أو محباً وإن كلفته من أمره عسرا .

وفى المدرسة هذا العالم الصغير على سعته عوالم شتى . . عالم من الفضيلة يلقن . . وعالم من الأخلاق يقام . . وعالم من العلم يتعهد .

وفى المدرسة تتطلع أعناق صغيرة . . وترنو أحداق تلمع ببريق الصفاء والذكاء والنضارة . . نضارة العمر الغض والصحة الموفورة . . أعواد صابحة كما يقول أهلنا فى الريف . . وينصت الأطفال ويتداخلون بعضهم فى بعض وتتحلق منهم حول معلمهم الندوة ليلقنهم ، إن كان بارعاً لبقاً ، درس التاريخ فى صورة قصة ، وقصص الدول والملوك فى هيئة حكاية . . فيعون منه ويفهمون عنه ما يعجز غير المعلم الموهوب عن تلقينه لجفاف مادته أو قصور آلته أو قسوة وسيلته أو غلظة طبعه . . والمدرس إذا كان موهوباً حبب العلم إلى طالبيه أما إذا كان محترفا فالله للصغار وأوليائهم .

وفى المدرسة يعرف الأطفال غير عالم البيت دنى أخرى من الناس والعلاقات والأشياء . . إن كل جديد عليهم عالم زاخر بمباهجه وبما وفرته وسائل التربية الحديثة وأساليبها . وكم من مهارات وقدرات أكسبتهم فى الحقيقة ، وإن كانت محدودة الطاقة الآن حتى لتكاد غايتها تكون قاصرة على أبناء القادرين فى المدارس الخاصة حيث العدد مناسب والجو مهيأ والوسائل موفورة حين تغص المدارس العامة بمن فيها فيكدسون فى الحجرات أو يلعبون فيها كصغار السمك وتمضى الضجة فى عملها فلا يسمع مدرس ولا يفهم تلميذ ولا تتضح حقيقة ولا يرق طبع ولا تصقل حاشية وهنا تفقد المدرسة معناها وتتحيف رسالتها .

وفى المدرسة صداقات صغيرة . . ولكنها كالبذرة الحية تعمّق فى الأرض وإن لم يحس بها الناس وتمكن لها الأيام فإذا جذرها ثابت فى الأرض وفرعها شامخ فى السماء . . إن أجمل صداقات العمر إنما هى صداقات الطفولة وأقرب الأصدقاء إنما هم رفاق المدرسة وصحاب الدرس . . أما الصداقات التى تعرض فى مراحل الحياة الأخرى . . يخلقها العمل أو الظروف أو المصادفة أو حتى

الجوار فكثيرها كالزبد يذهب جفاء حين يخلع القدم على صداقات المدرسة روعة فتحس لها عذوبة خاصة وتحس معها طمأنينة وأمنا .

وفى المدرسة يعيش أهنأ أيامه . . أيام تخففه من المسئولية وتحلله من الهموم . فالصبى فى المدرسة – إذا استثنينا أعباء الدرس والتحصيل – يعيش عيش الخلى سعيداً بيومه لا يعرف الماضى فلا هو يجتر آلامه ولا يعنى نفسه بالغد فترهقه أوهامه . . إنه يملأ يومه فحسب مرحاً وزياطاً ونشاطاً حتى لتحسب المدرسة إذا كركرت ضحكات أطفالها ، عشا كبيراً لصغار البلابل – سالمتها الأحداث فى جنة من الماء والحب والشجر كما يروق للأستاذ الزيات أن يشبه الخليين .

فى المدرسة مصائر وأقدار . .

وفى المدرسة طاقات وقدرات . .

فى المدرسة قوى بناءة وقوى مكافحة . .

وفى المدرسة طبقية لا مادية فحسب ولكن عقلية أيضاً فإن الله حين جعل الناس درجات إنما أقام التفاضل بينهم

على أساس مواهب العقل التى تصنع حظوظ أصحابه وأقدارهم .

وفى المدرسة مُنى تخايل بالتحقيق فى وناء وبطء فهى لا تجعل من الوليد رجلا إلا بعد سنين طويلة من الجهد والصبر والكفاح والبذل منه ومن أبويه على السواء .

وفى المدرسة حاضر واعد وغد مرجوّ فإن من بين هؤلاء الأبرياء اللاهين فى مرح ، الخالين فى صفاء ، مدره القضاء ونابغه الطب ، وصاحب العلم ، وعبقرى الفن ، ورب القلم .

وفى المدرسة أكبادنا تسعى ، وآمالنا تطوف ، وأحلامنا تحلق ، وحبنا يبذل ولا يضن ، يجود ولا يمنّ ، بل يعطى بغير حساب .

وأخيراً فى المدرسة التى تهب العلم وتعليه ، يغدو الجهل ويروح فى (جلاليب) فضفاضة يحمل أوراقاً مكتوبة وكتباً قيمة وإن كان لا يدرى . . إنهم سعاة المدرسة وخدمها . . وقليل منهم من (يفك الخط) كما يقولون .. من يدرى لعلهم لو عُلموا أو بتعبير أدق لو ملكوا وسيلة التعليم لتغيرت مصائرهم وحظوظهم .

أتراهم أهدأ وأصفى نفسا كما يقول شاعرنا :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله

وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

إن العلم يرهق صاحبه . . يرهق أعصابه . . يرهق إحساسه . . يلهب روحه يشعل طموحه . . فيعيش عمره يسلمه هدف إلى هدف وتنتهى به غاية إلى بداية فيشرع من جديد كالنسر لاينفك مصعداً حتى يوفى على القنة وليته عندها يهدأ أو يصل إلى قرار ! ! ولكن هذا الشوق الظامئ إلى المعرفة يلذ صاحبه ويكبره . . ما أجمل أن يعيش المرء فى فكرة ينام عليها ويصحو ويحلم بها يقظان نائماً . . ما أحلى وما أروح أن يعيش المرء فى أمل واعد يغريه بالسعى ، ويعين على الكفاح ، ويسعد فى النجاح ، ثم يبدأ من جديد .

كم يمنح العلم صاحبه من قيم ومعان ومنازل وأقدار .. ثروات لا حصر لها . . ما أكرمه وما أعزه على الحياة والناس .

كم يمد العلم – الصحيح – فى عمر صاحبه فيعيشه

حياتين أو حيوات كثيرة . . مضيئة . . مترفة ذلك الترف العقلى الذى يبعد صاحبه عن الدنايا وينأى به عن الصّغار ويرتفع به إلى آفاق من السمو لا يرقى إليها الكثيرون ولو جهدوا ، ما لم يهبهم العلم سره ويمنحهم غواليه ويضفى عليهم رؤاه وحلاه ويخلع عليهم طابعه من تواضع وشوق إلى المجهول ، من كنوزه وذخائره .. شوق ملتاح يهفو إلى كل شىء . . أو حتى إلى لا شىء .

ما أعز المدرسة فيها موسيقى وفيها رسم وفيها لغات وآداب . . إنها مجمع الروائع . . إنها عالم من عوالم الكلمة والنغمة واللون والضوء والظلال . إنها مجال من مجالات الخلق الفنى وأنا لا أعنى هنا إنتاج الآثار الفنية وحدها وإنما أعنى أيضاً تفتح المواهب الصغيرة على يديها وتنفسها فى جوها وطبعها على هديها . . إن اكتشاف موهبة وصقلها وبلورتها عمل من أعمال الخلق الفنى . . من الثراء النفسى . . من الترف الروحى . . من العذوبة والطرب . . من الانفعال الحى الخصب . . من جود الإحساس . . من الرقة

والوشى والتفويف ؛ من الرهافة واللطافة ودماثة الشعور ؛

ولأمر ما شبه شاعر النيل الأم المثالية بالمدرسة فقال وقوله الحق :

الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعبا طيب الأعراق



في الطريق

يستلهم الشعراء الوحى فى جنبات الرياض . . أو على شواطئ الأنهار أو عند مطالع الأقمار أو فى مجالس الطبيعة حتى لكأن الوحى لا يتنزل إلا على قطرات المطر تنهل على العشب فينتفض ، أو تنقر الزجاج فيتمتم وتتسرب على صفحته دموع . . أو لكأن الوحى لا يتنزل إلا على نجوى الزهر والندى حين يشاكيها الهوى أو يساقيها الرحيق . . كأن الوحى لا يعبأ إلا بعالم النهر والينبوع ولا ينقل إلى الشعراء الا وسوسة الغصون على صفحة الماء أو هسهسة الحصى فى الغدير مع أن الوحى يجود إذا صفت النفس وتفتحت عند عقد الدمامة كما يجود عند مفاتن الجمال . . وعند مظاهر القوة والضعف على سواء من حيث التجاوب والانفعال واستجلاء الصورة وإن اختلفت طبيعة الموضوع واختلف معها أسلوب العرض ونغم النفس .. نفس الكاتب ونفس القلم . . كل شىء لو أقبلت عليه وأعطيته من نفسك يعطيك ويهمس إليك همساً قد يكون جهير

الدلالة وإن حسبته خافت الصوت متواضع الأسلوب .

واهم من يقصر حبه على المنازه ومجالى الجمال وحدها على استهوائها للب واستئثارها بالحب وهى له كفاء ولكنى أريد أن نذكر معها الطريق . . أى طريق يسير الناس فيها مع اهتمامات يومهم وأمانى غدهم وبقايا أمسهم القريب والبعيد . فى الطريق تمشى قصص كثيرة على رجلين . . قصص شقية وقصص سعيدة وقصص فى طريقها إلى السعادة أو الشقاء . . والطريق يمر بها وهى جامدة فى مكانها لا يتحرك فيها إلا الأسفلت ! والفضل بالطبع ، للبلدية ، وهوايتها المفضلة « الحفر » . لو كانت الطريق تعرف التدوين والتسجيل لقرأنا قصصا كثيرة . . مثيرة . . قصص نجاح . . وقصص فشل وقصصاً صنعها القدر وأخرى ضحكت منها الأقدار .

والطريق كسالكيها مراتب وحظوظ وأقدار . . فطريق مهملة وطريق ضيقة وطريق واسعة ، وطريق تشرق بالنظافة . . وطريق تعج بالأقذار . . طريق ترتعد فى الظلام من الوحدة وطريق ترقص فى النور . . طريق رتيبة متشابهة تمل بالتكرار وتمض بالكآبة والقفر كأنه

العدم ، وطريق تضج الحياة بها ويتجلى الفن فيها ويتدفق المال ويفيض عليها وقد استعلن فى مظاهر شتى .

طريق كالحة ملتوية كأنها تعرف حالها بين الشوارع والطرقات فهى تتلوى من الألم . . وطريق متألقة تبهر بالضياء وتتكثر بالمنافذ الجانبية التى تتفرع منها أو تفضى إليها كما يزدهى بالروافد والنهيرات ، النيل العظيم .

طريق تحيط بها المبانى الشاهقة أو الفيللات الأنيقة ، ظليلة كأنها من الشجر والزهر يجلله ، فى مهرجان دائم وطريق عارية تلفحها الشمس وتنتابها نوبات الريح .

طريق تسبح فيها العربات الفارهة رتلا وراء رتل كموكب العروس مختلفة الرواء كالغيد كل لها طلعة ولون ترفل فيه وأدع المذاق لشاعرنا شوقى . . وطريق تصطك بها فى عراك عربات النقل بل عربات المجارى وسائر وسائل (البطىء) ولفظ البطىء قد اقتبسته من البلدية أيضاً وأشهد أنه تعبير مهذب عن القعقعة الثقيلة الخطى .

طريق منزوية على حافة الصحراء وطريق يصحبها النيل فى جريه ومسيره ويخلع عليها الأبهة والجمال والجلال

فتشرف به وتتملى منه وتطل ببيوتها عليه ويشار عند عد مجالى المدينة إليها . . فترتفع فى عين الناس وترتفع حتى فى تقدير الأسعار وتقويم الأمتار .

طريق هانئة ترف عليها النعمة ، حالمة تنعم بالهدوء ، بل تنعم بكل شىء بالصفاء . . بالثراء . . بالرفه . . بالطمأنينة . . بالأمن . . بالدعة . . بالسعة . . طريق مصقولة حاباها الإنسان مهندساً وفناناً ففى كل ناحية منها للفن لمسات .

طريق تتراشق فيها الألفاظ وتتسابق الأخطاء وتتبارى الفضلات وتتجارى القيم كالجدران بها والسقوف .. وطريق الكلام . . بها همس ، والخطو بها لمس . . كل شىء غدا متأنقاً حتى الصوت والإشارة . .

طريق تتصايح فيها الصبية ويتقاذفون بالحصى والسباب حتى ما غلظ منه ولكنه ، بالعادة ، أصبح لا يرهق أفواههم الصغيرة . . ولا يئودها بل أكسبها التكرار له طلاقة وزلاقة فهى لا تتلعثم حين سقط الحرج ، ولا تتردد حين افتقد التهيب ، بل تتدافع كأن بها انطباعاً . . وطريق

تحمل الأطفال فيها عربات تذيع جمال الوجوه والثياب . ترى واحدهم نائماً فى اللفائف البيض كما يحضن الكم الوردة ويصون ، أو جالساً كأنه صيغ من بسمات ولو درى لضحك بأعلى صوته الصغير فإن الدنيا كلها تضحك له . .

طريق تزقزق فيها العصافير وهى تطفر من الفرح ضحكت لها الشمس وطاب الهواء وتلقاها الشجر كحجر الأم متهيئ دائماً للضم والهدهدة والعناق وهو راض سعيد . . وطريق يعتبرها الذباب محلا مختاراً يعقد اجتماعاته فيه وينصب موائده كما تعتبرها النوافذ العتيقة المتآكلة مناطق نفوذ لها تلقى عليه ما تشاء من أوامر تتدلى السلة على الأثر لتكفل التنفيذ ، وتقذف ما تشاء من ماء وفضلات قد لا تستأثر بها كلها الطريق بل تدع جانباً منها للمارة ولو كانوا غرباء ففى شرعة الكرم لا يفرق الجواد فى العطاء .

طريق تحرسها الشرطة وتقوم على مفارقها علامات المرور وينظم بها السير ، وطريق لا يعبأ بها أحد حتى ليضيع فيها المكروب بلا مجير . .

طريق بيوتها مفتوحة الأبواب ليل نهار فى سخرية مضمرة فليس عندها ما تخشى عليه الضياع أو اللصوص.

وطريق بيوتها يقوم أمامها أكشاك خشبية مخططة كحمار الوحش تقول فى صمت جهير هنا وزير أو كبير خفف الوطء أو طأطئ الرأس ، ولست أدرى فيم التكرار ونحن شعب شديد الذكاء وهذا المعنى بالذات عرفناه طويلا فما بنا حاجة إلى ترديد .

طريق وفية تحمل أسماء واحداً تظل تعرف به مهما تغيرت الظروف أو تبدلت الأحوال وطريق كالحرباء لها فى كل حين سمتاً وفى كل آونة طابعاً فهى مع الأيام تقبل على من تقبل فتحمل اسمه وتبدل كل ساعة لافتة كأن الموت يغير المبادئ كالأشخاص فيتركها مثلها عظاماً نخرة بعد أبهة ورواء .

طريق رسمية فيها للحكومة دور وقصور وهذه أجل ما يسترعى العين فيها ، العلم ، لأنه نبع عنا فهو علم لنا . وهو رمز غال يلتقى الكل عنده حتى حين يعز عند سواه الالتقاء .

طريق سافرة صارخة الزينة والبهرج ، صارخة الموسيقى والحركة صارخة الاستمالة والاستهواء فلا حياء ولا حتى استحياء . . وطريق لها مهابة وعليها جلال . . تلوح فيها عن بُعد القباب .. قباب المساجد أو الأضرحة أو الكنائس .. ولست بمالك عواطفك ولو كنت من العمليين المنطقيين حين ترن الأجراس أو يسرى فى سمعك إذا سجا الليل وهدأت ضجه الأحياء جلجلة المآذن والشجى فيها ، بكلمة « الله أكبر » !

طريق عتيقة تروع بالقدم كما يروع غيرها بالجدة أو الوفرة ، وطريق حديثة قامت على جانبيها المبانى ذات الطراز الواحد ، أعنى المدن المهنية ، فهذه للمعلمين وتلك للمهندسين إلى آخر القائمة المجدودة . . مساكن متشابهة قد تكون منسجمة أو ما شاكل هذا من مزايا ولكنها تذكرنى دائماً بأولاد الذوات . نسخ مكرورة وصور معادة تتجمع شللا فى المحافل والمنتديات يجذبها خيط خفى من الترف القادر ، والغرور الواجد ، والجمال المصنوع .

فإذا أعجبتك المناظر ثم استطعت أن تدلف من

الأبواب فدعنى وشأنى وتوغل أنت متعللا أو متسللا فقد تجمع عينك لحسن حظلك بين المخبر والمظهر . . . وقد تصطدم بحقيقة مرة كانت تحسبها لا توجد إلا فى الأكواخ الحقيرة أو البيوت الصغيرة أكواخ الجهلة والمعدمين وأنصاف المتعلمين . . . ولا تسل بعد هذا فيم التشامخ والارتفاع فإن فى استطاعة الدخان الأغبر أو ذرات التراب أن تصعد فى الأفق أو تعلو فى الفضاء كما تعلو المنارة الهادية سواء بسواء وإن اختلف المؤثر والأثر .

طريق محدثة النعمة وطريق تاريخية أصيلة تصافحها الذكرى فى حى خان الخليلى .. هناك حيث يطل القدم من المشربيات المتقاربة حتى تستطيع الحرائر قديماً أن تتبادل الأوانى والطعوم على مسافة ذراع . . كان الناس قبلا ، كرماء وكانوا عاطفيين لم تصدئهم الأثرة . . ، ولم تفسدهم القسوة ، ولم يبطرهم وصول .

هناك حيث يتوارى القدم خلف البوابات الكبيرة التى كانت تستند إذا فتحت إلى حجر كبير حتى لا يصفعها الهواء فتحدث دوياً يزعج (الحريم) والأطفال . . .

هناك حيث الطرقات الصغيرة الواطئة كأنها مدن تاريخية والحارات نام فوقها التراب حتى غدا لصيقاً بها فاذا فكر فى الهجرة أو التحرك رشوا عليه الماء ليبترد ويهدأ ويتطرى النسيم . . هناك حيث النرجيلة تتمطى بخرطومها على الرصيف ترمق الغادين والرائحين وهى تكركر من الضحك ، تماماً كما تفعل بنات البلد وقد تناثرت عصائبهن الملونة والملاءات الهفافة على كورنيش النيل فى مصر القديمة أو روض الفرج . هناك حيث يتصاعد دخان الشواء فتعوى بطون المحرومين ، وما أكثرهم ، ولها على رائحته سعار فتلسع العيون بالنظر المحروم أو تلسع الألسنة بالغضب المكبوت ولكن سرعان ما يعاودها صفاؤها فإن هؤلاء كثير منهم كلمة حلوة تمسح على وجوههم . . أو تربت على أكتافهم حين لا يشبع المال أو السلطان كثيرين ممن يحسبهم الناس أو يحسبون أنفسهم عمالقة يتضاءل إلى جانبهم أولئك الأقزام ! وما دروا أن معدن الروح فى أغلب هؤلاء أكرم عنصرا وأصفى جوهرا وأشد ألقا من كل ما يصفون ولكن الأدعياء الذين ينصبون أنفسهم لتقييم الناس والأعمال يحسبون أن كل ما يلمع ذهبا .

هناك في خان الخليلي حيث الصوانى الصفر المستديرة المنمنمة المحيط يرفعها على كفه ، كالحاوى ، عامل من عمال المقاهى البلدية ومنهم المتأنق الذى يضع الطاقية البيضاء المخرمة فى وضع مائل على رأسه تحسبها واقعة لا محالة ولكنها تظل ثابتة (صنعة) .. ويمشى كالأوزة كأنه يدور مع كورنيش الإسكندرية والطريق مستقيمة أو كأنه دراجة تسير بغير سائق ، وقد تصطلك به دون أن تسقط من كفه الصينية بما حملت أو حتى يضيع من الشاى رشفة ! مرة أخرى أقول (صنعة) .

هناك حيث يخب أولاد البلد فى القفاطين (الشاهى) التى يتهافت على قماشها السياح ومن فى طريقهم إلى أوربا فإن الحسان هناك يتهافتن بدورهم عل ارتدائها فى السهرات .

إن « خان الخليلى » منطقة نفوذ للشعب وللسواح . . فهؤلاء أيضاً ممن يتمسحون .. بالشعب ويتوددن إليه قليل منهم عن صدق ، وكثير عن عرض ليعرفوا خبيئة أمره . . ويكشف غرضهم هذا عن نفسه فيما ينشرونه عنه من ترهات وأكاذيب يصم الزمن والحقيقة

أصحابها فإن الشعوب لايطل لها قتيل .. وشعبنا خاصة فيه « سر » كما يقول الصالحون فما أفتأت عليه باغ إلا أدانه التاريخ واقتصت منه المقادير .

هناك حيث تنصاع الفضة لليد الصناع فتشكلها أقراطاً وعقودا تستهوى الكثيرات والسائحات خاصة فيسرفن فى اقتنائها .. هناك تستطيع الآن أن تعثر على البقية الباقية من مهرة الصناع فى التكفيت والتطعيم .. إنهم خبراء هذا الفن الذى دالت دولته وأصبح يقصد الآن للترف أو الإطراف وغالباً ما يكون هواة الطراز العربى « غربيين » .

هناك حيث تتحلق ندوات الذكر ينتظمها رجال أطلق معظمهم لحاهم وأسبلوا جفونهم يميلون بجذوعهم يمنة ويسرة فى حركة تقليدية يذكرون ويوحدون فإذا علا المنشد فى إنشاده اشتدت حملتهم حتى ليطرد مع صوت المنشد جهدهم المبذول .

وفى خان الخليلى وما حوله (جماعية) فالصناع . يتناثرون فى تجمعات متناسقة والذاكرون ينتظمون فى حلقات والباعة المتجولون يتجمهر حولهم الناس والحديث

على طريقة العصافير الكل يقول ولا من أحد يسمع ولعل أكثر الجميع فضولا ، النساء فهن يشتركن فى كل شىء بالتعليق إذا كن سارحات ، أو النظر إذا كن خاليات ، أو .. المناكفة إذا كن شاريات ، أو المجاوبة إذا كن راضيات .. ففى حلقات الذكر يجدن بالزغاريد . . . والعليمات منهن بأصول هذا الفن يتبرعن به عن طيب خاطر دون سؤال يكفى أن يمر بهن جهاز عروس فى موكب من العربات الكارو وإن كانت تغنى فيه عربة واحدة ، ولكنه التباهى المتأصل فينا أو لعله الرفق بالحيوان . . يكفى أن يمر جهاز عروس لتدوى الزغاريد حتى ولو لم تعرفها المزغردات ! فإذا كان المار موكب العروس بلغ الجود أقصاه فترتفع الزغاريد متواصلة ومتداخلة مقتضبة أحياناً أو مسهبة مسترسلة وهذا يرجع إلى طاقة الصوت وصاحبته أو لعلها مسألة حظ . . بين العرائس . .

هناك ترى أو تسمع عن الدراويش فى ثيابهم الفضفاضة ولحاهم المسترسلة وعمائمهم المتكورة وأرديتهم الواسعة وقد لف الواحد منهم حزاماً زاهياً على وسطه قد تمرد عليه منتصف ثوبه كأنه يمط شفتيه فيغدو الرجل وله

(عب) كالذى نراه فى الحقول عند جمع القطن وهى هيئة يسهل على الدجالين تقليدها ليستغلوا غفلة العامة وسذاجة سليمى النيات من الذين يؤمنون . . بالغيبيات والسحر . .

* * *

والطريق يسلكها عابر إلى غاية ، ويسلكها محمول إلى النهاية ، ويسلكها شارد إلى لا شىء ، وشارد آخر يراها كل شىء فهى معاشه وهى مأواه يطوف ما يطوف ، ثم يأوى إليه ويهوى إلى الرصيف فما هى إلا هنيهة حتى يلتحم به فى نوم عميق حتى لكأنه قطعة منه . . قطعة متكومة كما تحول التجاعيد والزمن ، الوجه إلى نتوء يغطيها جلد قديم أو حفر ينصل معها وبها الشباب فهو بعد الدلال مهين . . لا يهواه النظر ، ولا يتحرق عليه القلب ولا يتلهف عليه حب ، ولا يشتاق إليه ولهان . . وكان العشق يستمد منه معانيه ، . . والفتنة تتأرجح على خديه أحياناً ناراً تحرق وآنا نوراً يضىء وهو على الحالين رضى للموعود .

فالطريق يا سادتى الشعراء تؤدى مهمة للوحى كما تؤدى عند السادة اللغويين مهمة فى البلاغة فقد علمونا أن

الطريق المستقيمة كناية عن الهداية والرشاد ، والطريق الملتوية كناية عن الغواية والفساد . ولعلهم استهدوا قوله تعالى (أفمن يمشى مكباً على وجه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم) .

والطريق تستعمل حيناً بمعنى الوسيلة ، وآنا تؤدى معنى الكفاح حين يلازمها الفعل (شق) وتارة يعنى « الأسلوب » فترسم الطريق إنما هو احتذاء . .

وغير هذا من المجازات والكنايات والاستعارات : .

طريق . . وطريق . . ألوان وأنماط . . مراتب وحظوظ وأقدار . .

ولكن ما لى بالطرق وقد عنيت السالكين فيها ومن هؤلاء عنيت خاصة صبياً وقعت عليه عيناى فى الصباح وأنا فى طريقى إلى عملى فما كادت عينى تصادفه حتى تشبثت به وأخذت تلم به نازلة ومصعدة . . بدأت تتأمله ثم انثنت فاستغرقت فيه . . كان فى العاشرة من عمره إن صدق تقديرى وما أكثر ما أخطئ فى حساب الأعمار أو حساب الأرقام :.

كان يرتدى جلباباً أزرق نظيفاً كأنه فلاح نموذجى صغير وقد دار حول وسطه حزام أبيض مجدول رفيع قد شمر هو عن ساعديه وكشف ثوبه بدوره عن ساقيه بنفس المقدار وكأنها حركة مقصودة من الاثنين معاً ليبدو فى رأى العين أنيقاً بالمواءمة والبساطة وإن لم يدخل هذا فى حسابه وليس من طبيعة عمله على التحقيق فقد كان يحمل هرماً صغيراً من النحاس الكابى بالصدأ ، والمعتم من فعل الدخان والنار .. هرماً صغيراً من الأوانى المختلفة الأشكال والأحجام قد تداخل صغيرها فى الكبير كما يتداخل خراف القطيع حين تدهمها العاصفة لو رآه المرء من بعيد لأشفق عليه من حمله أو من قسوة الأقدار .. ولكن الناظر إليه عن كثب يلفته ، بل يشد نظرته إليه ، خفة فى فى المشية والحركة كأنه متخفف من حمل ثقيل غير رازح تحته ! راعنى فى عينيه بريق جذلان لا يلمع عادة إلا فى عيون السعداء والمجدودين تُرى هل هو سعيد . . ليته . . ليت السعادة فى أى لون تكون من قسـمتك يا صغيرى الحبيب . . لقد مس أمومتى التى خلفتها على بعد خطوات فى البيت . . كانت حدقتاه تضيئان وتتكلمان وتتواثب

نظراتها . . فى براءة . كانت تروى كلاماً أبيض وكأن ما ترويه شعراً تترشفه ولا تنشده . كانت تروى ظمأ تعرفه قلوب الأمهات . . كان البشر فيها يرش البسمات على خطاه . . ليت فى طاقة الإنسان أن يجمع البسمات عندما تتقاطر على الأرض ، البسمات . . إذن لسرت وراءه التقط من فوق الرصيف البسمات البيض كما تجمع الفلاحة المصرية ندف القطن فى فرحة راقصة .

عطف قلبى الصبى ببراءته . . بسمرته . . بمشيته برجولته المبكرة المتبدية فى الجسم السارح والساعد المفتول والجبهة المرتفعة والنظرة المتطلعة اللامعة . . عطف قلبى ؛ الصغير ، فدنوت منه حتى صار كتفى يسامت الصف الثانى من نحاسه المرقوم وسمعته لفرحتى يغنى فى نشوة . . وسرت إلى جانبه وكأنى لا أقصد بل سرت معه . . بكامل صغوى . . بحواسى كلها لاأذنى وحدها . . كان صوته صغيرا رفيعاً يتسلخ فى النغمات الصعبة فيضحك حبى وتتزمت شفتاى ؛ ثم يتسلسل وتعود إليه رقته وصفاوءه . . سمعت وفرحت ونسيت طريقى بسعد طريقى فلم ينبهنى إلا صوت سيارة حمقاء كانت تعدو بسرعة . . ليتنى ما تذكرته لأعرف باقى

قصتك . . حقيقه نفسيتك . . جهد يومك . . طاقة عملك . . كل شيء عنك يا حبيبي الصغير .

وبلغت بعده مكان عملى وجلست إلى مكتبي كما أجلس كل يوم ولكن الصورة الصغيرة ظلت تخايلنى وتعترض تفكيرى قلت أجلوها لأستبقيها وأنحيها معا فأفرغ لبعض شأنى .. لا أعنى تنحيتها ، ما إلى هذا قصدت ولكنى أردت الفكاك من أسرها وولوعى . . فليس أحب إلىّ من حديث القسمات والشيات حتى الأشياء أيضاً إذا أنصت إليها نعمت معها بالحديث .. إنها فى صمتها كثيراً ما تبين بغير حروف وألفاظ .. وما طاقة اللغة إذا انثالت عليها المعانى فى دفق يغرقها فتضل وسيلتها إلى التعبير أو تفصح فى غير بلاغ . . ويظل الكثير مستسرا كامنا يلمحه ذكاء الفطرة ويحسه ذكاء الشعور بين السطور ووراء الألفاظ وفى حنايا الظلال .. إن اللغة من عمل الإنسان ولكن المعانى من عمل القلب وهو أكبر من اللغة ومن العقل نفسه .. إن القلب الإنسانى عوالم شتى ثرة المنابع واسعة الآماد .. ويلى من قلبى أو قلب الإنسان فى إذا ظل موكلا أوكالموكل بترسم الخطى والأصوات والحركات فى كل طريق ؟



فى المحطة

وفى المحطة ، على رهبة فيها ، ككل طريق فى الحياة ، مادة للكتابة ومجال للتأمل . فمسافر على موعد مع لقاء ، ومسافر على مطرح النوى . وفى المحطة سيل من الدموع وغمر من القبل .

وفى المحطة هرولة وخبب ومن سخريات القدر أن يدع الناس يتزاحمون ويدفع بعضهم بعضا كأنهم فى سباق للركوب حتى إذا استقر بهم اللهث ، وظنوا أنهم ظفروا بطلبتهم . . مقعد فى القطار ، انكشف لهم خطؤهم : لقد ضلوا القطار المقصود ، كما يضل التائه الطريق فيتدافعون من جديد ويعتكر لهم زحام ولكن على النزول هذه المرة وترك المقعد المختار ، وقد يتخلف منهم واحد فى القطار فيمضى به بين حيرته وحيرة مودعيه .

وفى المحطة ، كالمستشفى ، تتقرر مصائر وتكتب أقدار :

وفى المحطة ألوان من الثياب وأنماط من الناس وخليط عجيب من الأشياء والهيئات والحركات فبائع (السميط) يصيح بأعلى صوته فى وجوه الغادين . . والرائحين والراكبين مقرنا سميطه بالبيض وكأنه ظن الأكداس الأسطوانية من كعكعه المسمسم ، ذرات لا ترى إلا بالمجهر دون العين المجردة .

وكل صاحب سلعة يصيح باسمها . . إن الصياح هو العملة المتداولة فى المحطة . . كل من فيها وما فيها . . يصيح . . القطار يصفر . . الناقوس يدق . . الصدور تزفر . . الأطفال يبكون . . بائعو الأطعمة والمرطبات والصحف أيضاً يصيحون وكأنهم يمرنون عضلات أصواتهم بل إن المتسولين أيضاً يصيحون وهم يسألون الناس . . إلحافا ! ، وكان الأجدر بهم أن يستتروا . . وتتكرر هذه المظاهر فى كل محطة يقف بها القطار .

وفى المحطة طبقية فى كل شىء فيما يقرأ وفيما يؤكل ، حتى إذا بلغت الأمواج البشرية حافة الرصيف ، حسم القطار هذه الفروق فى صراحة لا تخلو من جفاف .. فالسادة يقف موظفون موجهون فى هيئة (التشريفاتية) يتقدمونهم

إلى عربات البولمان حيث المقاعد وثيرة تكاد أرقامها تعلن أسماء أصحابها فلا تدافع ولا زحام ، والنوافذ أتوماتيكية تحليها الستائر والهواء مكيف يتحدى الجو .. جو القطار على الأقل .. هناك حيث تتزن الأصوات ، وتتزمت الكلمات ويتأقرط كل شيء حتى عمال البوفيه .

ثم ركاب الدرجة الأولى والثانية وهؤلاء أيضاً يدخلون القطار من أبوابه ويتخذون سمت الوجهاء أو (المتواجهين) لو صح هذا التعبير . أما سائر عملاء القطار ممن تخلفوا عن هاتين الطبقتين فقد اختلطت أجسامهم وأنفاسهم وروائحهم بما يحملون من سلال ومقاطف ... اختلطت بخوصها .. وحمولتها .. ويبدو أنهم يقرون هذا الامتزاج فترى أحدهم يأخذ مكانه على المقعد الكبير الذى أعد لاثنين فيريح مقطفه إلى جانبه فى حرص وإعزاز والناس حوله وقوف يصخبون ويتفقدون مقعداً خالياً ! وتدور فى هذه اللحظات الخاطفة مناقشات صاخبة بدورها يهتز فيها المنطق وتضل شرعة العقل : فكثيراً من هؤلاء المعتزين بأحمالهم لا يقتنعون بأفضلية سواهم من البشر عليها ، وأحقيتهم فى اتخاذ مكانها .. وقد يتبادلون عبارات قاسية وألفاظاً غليظة حتى إذا انكشفت المعارك القطارية عن صعود الأحمال العزيزة إلى الرف لتطل على بقايا المعركة من علِ ، انقلب المتشاجرون إلى أصدقاء أو شبه

أصدقاء يتجاذبون أطراف الحديث ويتبادلون أمانى السلامة وتجرى بين بعضهم والبعض (مقاصة) فيما يقتنون من صحف وأقول يقتنون لأنهم لا يعترفون بضرورة الصحيفة إلا فى المحطة معيناً على مشاق الرحلة وطنين القطار فهى قنية أو فاكهة ذوقية أو ترف عقلى . . . إن قومنا عاطفيون سريعو الغضب ، سريعو الفىء إلى الرضا كما يقول المازنى . . .

ومن الطريف أن هذه المعارك والتصفيات تتكرر فى عربات الدرجة الثالثة ــ دون سائر عربات القطار بالطبع ــ فى كل محطة حيث تستخدم النوافذ للدخول والخروج كوسيلة أقصر وأبرع أيضاً . . حتى إذا استقر بهم المقام من جديد سادت مبادئ الاشتراكية والتعاونية بينهم وإن لم يفهموا معناها ومرماها .

والناس فى عربات الدرجة الثالثة فى سباق ، من حيث الصوت ، مع عجلات القطار وخلايا النحل ومطاحن الغلال فلا يرحمهم بعضهم من بعض إلا مقرئ يرتل آيات الله بصوت يشجيهم ويوقظ تقواهم دون أن يلتفتوا إلى ما فى تلاوته من لحن وأخطاء ومعان أيضاً ، أو مغن يرتفع ترجيعه وتطريبه وغالباً ما يكون الغناء فى مدح الرسول

فيتنفسون فيه . . لهم الآخرة ما دامت الدنيا قد فاتتهم . . أو هكذا يظنون .

والمحطة يفضى إليها ميدان دائرى مسور تدور معه طائفة من الحمالين متحفزين كالعقبان تتشوف صيداً وتترصد فريسة . وقد يتجاذبون حديثاً متقطعاً ولكن لا أثر فيه للعراك على كل حال حتى إذا وقفت سيارة تجهموا بعضهم لبعض إيذاناً بالمنافسة على حمل الأمتعة المتأهبة للنزول . ينقض السابق منهم عليها فيحملها بلا استئذان أصحابها فى الغالب ويحث الخطى وعبثاً يصيحون خلفه فلا يجدون مفراً من الانصياع له والسير وراءه . وشبيه بهذا ما يدور بين سائقى السيارات والعربات .

وفى المحطة سلالم تحتية يصعب عليك من بعيد أن تميز الصاعدين من الهابطين قصارى ما تراه أعالى الناس والأشياء : مساحة كبيرة من الرءوس والحقائب والأحمال المختلفة والمقاطف أو الأطباق الطائرة . أما الأجسام وخاصة الأرجل فمن المتعذر عليك تمييزها إنها كأرجل القطيع لا تتبين العين منها إلا حركة متداخلة فى تواصل ودءوب . . كثيراً ما تذكرنى سلالم أنفاق المحطة (بالهدار) فى بلدتنا ، فإنه لا يرتفع إلى مستوى المساقط المائية ولكنه يتميز بتداخل

حركة المياه فى الانحدار والصعود فإن الماء الساقط لا يتأقلم فى مكانه الجديد ولكنه يحاول الصعود من جديد فى إصرار وتحد كأنه سقط سهواً ـ أو كما يفعل الأطفال فى أرجوحة الانزلاق ما يكاد عفريت منهم ينزلق إلى أسفلها حتى يعلوها من جديد :

ويمتد زحام المحطة ، وتدافعها ، إلى خارجها على بعد كبير . فالشوارع الموصلة إليها والميدان الكبير خارجها كلها مزدحمة متدافعة . . كل شىء فيها . . الناس والعربات والكلمات . . وكأن الزحام من الأمراض التى تنتشر بالعدوى :

وإذا كان لكل شىء جانبان فإن المحطة تفسر هذا فى صور مختلفة . فالوقت طويل يرهق المنتظر واللهفان . . وقصير يرهق أيضاً المتأخر والعجلان . . والناقوس ، ناقوس المحطة يطرب صوته الموعود باللقاء وهذا الصوت نفسه يزعج المودع والمفارق كأن لالقاء . . إن الصوت الواحد بشير ونذير . ومن هنا كان جو المحطة رهيباً يرهق القلب الذى يرفرف للوداع أو يخفق للقاء ويلهث فى الحالين مع القطار جيئة وذهابا . . القطار

نفسه رسول وصال ومفرق أحباب وهو فى نفس الوقت وسيلة كبرى من وسائل الحضارة الحديثة التى تمتاز بالجماعية تعين عليها مستحدثاتها كالقطار و (الراديو) و (التليفون) أو المذياع والهاتف نزولا على إرادة الفصحى . وهذه الجماعية سر ما يبدو عليها من تجدد وتدفق ودفعة . وهذه الجماعية أيضا تعين على الخلق والانشاء والتحسين بالإيحاء والاقتداء والمنافسة ولهذا تعتبر البلاد التى يمر بها القطار بلاداً محظوظة لأن التقدم فى ركابه على الأثر وهنا أذكر قرية كاتبنا يحيي حقى ، التى خلدها وخلد القطار معها منعما ، فى كتابه (صح النوم) . . ولكن هل الحضارة التى يسرت الرحلة بعد مشاق ، ووصلت المترامين بعد افتراق ، أتاحت للنفس ما أتاحته للجسم من راحة ؟ أشك فى هذا . . هل نحن أهنأ نفسا وأنعم بالا من آباء لنا وجدود ؟ أشك فى هذا أيضاً . فكثيرون منهم سلموا على المرض ، على سذاجة وسائلهم الطبية وأمنوا من القلق والتوتر حيث لا دواعى له ولا موجبات من صراع وتطاحن وخوف وافتتان فى وسائل التدمير والتخريب .

* * *

ومحطة القاهرة بالذات مصب تلتقى عنده القطارات

بل مدن القطر كلها لمركزيتها . فالقاهرة الساحرة لها صور مختلفة فى نظر نزلاء المحطة . . فيها كما يتوهم المرضى . . دواء من ليس له دواء . . وفيها فى نظر القروى ، الترام . . وفيها فى خيال بائع القطن النساء الجميلات . . وفيها بالنسبة إلى الآباء . . الموسرين المدارس العالية . . وهكذا تبدو القاهرة أو على الأدق تشكل القاهرة فى عين ركاب القطار فهى جنة الموعود ، وحلم المقل والعاجز يظن الرزق بها يتفجر أنهاراً ولكنه لا ينسى بلده الأول فهو عزيز وإن ضن ، وحين يبارحه إلى القاهرةيعد نفسه فى غربة حتى يعود . فإذا استبد به الشوق أقسم ألا يفارقه مرة أخرى فإذا عاد وضاقت الحلقة حول رقبته التمس المخرج والفرج فى القاهرة من جديد ولكنه ينهد إليها مضطرا وهو يقول :

(أنا كل ما أجول التوبة يا بوى ، ترمينى المجادير)

معرض زاخر بالصور ، المحطة . . كم رأيت فيها من مشاهد وقصص تنبض بالحياة . . شاهدت مرة لقاء حلوا . . كان بالطبع بين خطيبين وقد تم هذا اللقاء بين العينين قبل أن يقف القطار وافترت الشفاه عن أعذب

ابتساماتها وظل القطار الساذج في سيره . . المتهادى داخل المحطة ثوانى كأنه لم يدر وأنّى له . . وسابقه المحب لاهث الشوق وكأن المحطة ميدان خلا إلا من القطار والرجل يجريان فى اتجاه واحد ثم يقفان معا وقفة لايعرف معها السابق من المسبوق ونزلت الفتاة وعينى لاترتفع عنها من فرحى بها وإن كنت لا أعرفها ولكن السعادة تعدى وهى فى كل مظاهرها وصورها تصفى النفس من أدرانها وتجلوها أو تجلو عنها صدأ الهموم . واكتفى الرجل بالسلام الطروب ولولا بقية من حياء لبلغ الشوق مداه ولكن الحياء المطبوع فى الإنسان لم يمنع المحب الوامق من أن يلمس المرموق المعشوق بعينيه لمسات لم تترك فيه موضعاً لم تربت عليه وترشفه كالرحيق وتستافه كالعبير وتتزود منه كأنه على سفر لا على موعد ولقاء . . و . .

كان الرجل يعب منها بعينيه ملهوف الظمأ كما يقع الحران فى لظى الصحراء على نبع منحدر الماء بارد الظلال . . ورأيت وسمعت حديثاً دار بينهما لم أتبين

بالطبع حروفاً فيه أو كلمات ولكنى فهمت معناه . . وصلى قلبى لهما ولوطنى أيضاً . . فإن الوطن للسعيد مجموعة بيوت سعيدة .

* * *

وفى المحطة رأيت أبوين ووحيدتهما . كانت الفتاة أوالسيدة الصغيرة تمشى على الرصيف تتخطر وهى تثرثر مع زوجها وفى عينيها حلم سعيد .. لعلها كانت تتصور مقدما مباهج الرحلة ومناعمها على كل حال لم يكن يبدو عليها أنها تحس دبيب الخطوات الواهنة التى تزحف خلفها فى عبادة صامتة . كان الأبوان الشيخان يسيران وراءها فى موكب مختلط من الدعاء لها بسلامة الوصول والعود والأسى لفراقها والشوق إليها .. وهى منهما ما زالت غير بعيدة .. وكانت نظراتها المتألقة وخطواتها المرحة تعلن فى صراحة ووضوح أنها جيل جديد وعالم جديد واهتمامات جـــديدة ومفاهيم جديدة وأحاسيس جديدة وأحلام جديدة . إن أبويها الشيخين يمثلان بالنسبة إليها المنبع وهى النهر الذى يسير إلى غايته قويا فتيا وكلما أوغل فى المسير ابتعد عن منبعه الذى صدر عنه واستمد منه الدفعة الأولى التى أعانته على التفرد والتميز والظهور وكثيرون ينظرون إلى النهر ويصفون

ويعجبون وأيضاً ينسون الأصل الذى نبع منه ولكن المنبع لاينسى النهر أبداً ولا يتخلى عنه بلى إنه يعيش له يمده بالماء والاستمرار وما فيه حياة .

إن الإبنة التى استوقفتنى فى المحطة بالنسبة إلى أبويها ماض وحاضر وآت إنها شبابهما أيام ميعته وزهوته وسناه ، إنها حبهما أيام قوته وانطلاقته وبهاه ، إنها فى عين الأب صورة من أمها وفى عين الأم بضعة من رجلها ، هى أغلى كنوزه وأعز هداياه .

إنها أملهما معا وامتدادهما معا وامتزاجهما معاً .. إنها كل شىء حين يقنعان منها بالمرتبة الثالثةبعد زوجها وأولادها . إنهما فى عالمها ونفسها شىء من أشياء ولكنها هى كل الأشياء كل الناس كل المنى .. كل الحب .. يا لله لقلوب الوالدين يلذ لها العطاء والفداء كأنها لم تخلق إلا للعطاء والفداء ! ليت الأبناء يعرفون ولا يمزقون بالجحود قلوبا صيغت من حنان وليس أندى عليها ولا أشهى عندها من بر البنوة حتى وإن كانت فى غنى عنه .. إن المسألة هنا ليست مسألة (ضرورة) ولكنها مسألة مجاوبة وانعطاف وتقدير إنها لذة الثمرة يدنو قطافها بعد كفاح طويل حافل . ألا ليت

الأبناء يقدرون ولكن أغلبهم تخونهم الذاكرة حتى بعد أن يصيروا آباء وأمهات ويعيشون التجربة الخالدة التى تتعاقب عليها أجيال الإنسانية منذ ظهرت على الأرض الحياة . .

* * *

وفى المحطة رأيت رحلة مدرسية متأهبة للسفر إلى أحد المصايف .. فقد كانت تجرجر معها مستلزمات المعسكرات بتفاصيلها ولكن الذى استوقفنى هنا هو لصوق بعض أمهات التلاميذ بهم فى فناء المحطة فى شرود وخوف لا يخفى ، فقد كان يطل من عيونهن وينطلق من أفواههن كلمات متقطعة تحاول الواحدة منهن صبها من حين إلى آخر فى أذن أحد الشياطين الصغار وهو مشغول عنها برفاقه .. قصارى ما يمنحه لها إيماءة من رأسه تقنعها أنه سمع منها ووعى عنها وهو لم يسمع شيئا ولا يريد . إنه يقفز من هنا ويقضم (ساندوتشا) مخطوفا من هناك ويتوثب ويطفر ويكاد يطير وأمه كغيرها ممن أتين مثلها ساهمة واجمة ، لست أدرى لماذا كأنه سيطوف العالم بمجاهله وأخطاره وهبه كذلك أليس رجلا صغيرا أو هكذا قدر له أن يكون ؟ لا تقل قلب الأم فإن الأمهات فى البلاد الأخرى خاصة تلك التى سبقتنا إلى الحياة الصحيحة ، يلقين بأبنائهن عامدات فى معترك الدنيا

ليكتسبوا القوة والطاقة على المجالدة والصراع .. هل يستطيع أن ننكر حنوهن الفطرى الذى طبعت عليه الأمومة فى كل مكان وزمان ؟ ولكننا شعب عاطفى حتى لنبدو ، من غلبة العاطفة ، فى بعض المواقف غير متماسكين . . ومن مساوئ العاطفة حبنا الجارف .. للبطولة وإن كانت من صنع أيدينا أو من صنع ظروفنا ونظل بمذخورنا العاطفى ننفخ فى صورتها ونهول من أمرها حتى نخدعها عن نفسها ونخدع أنفسنا فيها فإذا داخلها الغرور — غير ملومة — وانحرفت عن طريقها المقدر لها أو المرسوم أو المأمون فجعتنا النتيجة المعكوسة والأمل المنهار فجيعة تمس منا الأعماق . . الأعماق نفسها التى هزتها الفرحة ودفعها البهر .. فجنت على نفسها من حيث لا تريد .

لقد حابانا الله فيما حكاه عن فرعون حين لامه على قولته المشهورة أنا ربكم الأعلى وأغضى عنا ، فما كان المسكين ليقولها لو لم نمد له بالتهويل أو الإطراء أو المبالغة . وغير منصفين إن لم نذكر نصيبنا من جريرته معترفين أو معتبرين . . ومن غلبة العاطفة مبالغتنا فى الأحكام غضبنا أم رضينا . . ومن غلبة

العاطفة انسياقنا بل فناؤنا فى الحب ولددنا فى الخصومة ولكن صه :. يبدو أننى خرجت من المحطة إلى مجتمعنا كثير الأدواء . كثير الأعباء كثير الأهداف ومجالى الكفاح وهو كما ترى موضوع عتيد .. فلنقف عند هذا الحد لنبدأ من جديد .



في الليل

إننا فى المدينة المزدحمة ، وفى سباق الرزق والاستعلاء لانحس مولد النهار عند الفجر لأننا نفتح عيوننا عليه بعد أن يحبو ويتدرج ولا نحس بالتالى معركته مع الليل عندما يداهمه المساء ، ودفاعه الباسل عن نوره ونفوذه حتى يربد وجهه من رهق المقاومة وصراع البقاء . . هذه المعركة التى لاتستمر إلا ساعة حتى تستعلن نتيجتها تلك النتيجة المتوقعة كلما أمدت الليل جيوش الظلام بكتائب متواكبة رمادية اللون ينصل معها وجه النهار من الخوف وتعلوه غبره وترهقه قترة تتبين معها المعنى الكامل لقوله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) :

وإذ يشتد هجوم الليل يستسلم النهار إلى حين . . حتى يتجمع من جديد وينظم صفوفه ويرسل سرايا

الضوء عند الفجر تتسلل إلى مملكة الظلام وعلى الأثر يزحف موكب النور مكتسحاً خصمه وتزف العصافير البشرى بالصباح الجديد .. فيغمر الكون ضياء ، وتعلو الشمس السماء ، ويدب فى الأرض الأحياء وتضج الدنيا بالحركة وتعج بالنشاط فلا يبقى فيها ناطق أو صادح أو باغم إلا وله همرجة وزياط بعد هجعة وسكون ..

وليس كمثل الريف المفتوح مسرحاً لعملية الامتزاج .. هذه .. هنا على صفحة الحقول والترع يتداخل الليل فى النهار ويشيع فيه .. هنا تنداح الألوان وهى تختلط بعضها فى بعض فى صمت يجمد بدوره الكلام على الشفاه حين تستغرق العين والنفس والقلب فى النظر السارح إلى مظهر رائع من مظاهر القدرة حارت فيه منذ القدم الألباب ووقف عنده مبهوراً ، الشعر والشاعر .

هناك فى الريف ، قبيل الليل ، تبدو الشمس من بعيد بين الأشجار وهى تهوى نحو الغروب وكأنها تسير فى زفة ريفية . زفة يشترك فيها النخيل والشجر الكل من بعيد يبدو للعين كأنه يخب فى الزفة ويتسابق أما

الشجر الصغير أو بتعبير أدق ، القصير فيبدو كعجائز الريف أيضاً يكتفى فضولهن من الزفة بمد رءوسهن والتطلع إليها أنصاف غارقات فى ذكرى لذيذة من رؤى شبابهن الأول والدنيا دنيا .. أما أعواد الذرة فترقص على غمغمة النسيم وتهز اهتزازات موقعة. ومن رأى الزفة فى الريف يعرف كيف تثير حماسة كل من فيه .. يعرف كيف يشترك فيها الصغار مع الكبار . يعرف كيف يتمايلون حسبة واحتسابا مع دقات الطبول الساذجة التى لا تبعث طرب أهل الحضر بله هز الأعطاف .

والشمس فى الريف لا تتأقرط ولا تترفع على بعد مكانها وخطر شأنها ، إنها لا تزاور عن كهوفهم بل تعيش معهم وترش الضوء على خطاهم وتكسى بالنور حقولهم. وهى فى موكب الغروب تسير على طريقتهم فهى ككل عروس فى الريف تبدل فى حفل عرسها ثوباً بعد ثوب فى أقل من ساعة .. أثواباً فاقعة لامعة زاهية دليل الاحتشاد لليوم الموعود ، ودليل الوفرة أيضاً .

وفى هذه الزفة تبرق الترعة فى كثير من نواحيها

بالضوء الغارب فتتوهج عليها بقع الضوء وكأنها ثوب راقصة شرقية .. إنها مثلها (ميه) وأنها مثلها طويلة كثيرة الانعطافات تتثنى فى دلال ، لها فى الغروب بهرجة وإغراء ثم يسدل عليها فى الليل الستار .

ويبدو أن الغروب فى كل شيء يسير على مثال من غروب الطبيعة ففى غروب الإنسان تبدأ معركة طويلة بين البياض والسواد تتخذ رأسه مسرحا لها فيوشع المشيب فوديه ثم ما يلبث الرأس أن يشتعل شيبا ثم يدب الفناء فى أوصاله فيهن منه العظم ويفتر فى العين البريق وتتئد الحركة ويتزن الصوت .. ويظل هكذا ينحدر نحو المغيب حتى يلفه ظلام .

وفى غروب الدول علمنا التاريخ أن الأفول يسبقه اختلاط الأبيض بالأسود فى الماديات والمعنويات على السواء فتتداخل القيم وتتفاوت المقاييس ويسود الظلام .. ثم تتعلق الأنفاس وتتحرق الرغبة حين يلوح الأمل فى بزوغ فجر جديد وقد يحمد السرى عند الصباح وقد لا يسعد الفجر الجديد ، الأمل الوليد .. فيتعلق بالمنى ، ويتعلل بالرجاء فتطوى صفحة وتنشر صفحة قد تكون سجلا من الأعمال تثرى عليه حياة شعب وتنتظم على الجادة خطاه ..

هذا على الأرض ... وفى السماء عندما يتواجد الأبيض والأسود أو يشوب الصحو غمام فهناك رعد أو مطر ... هناك إذا حدث الاحتكاك معركة كمعركة الليل والنهار لابد أن تنجلى عن شيء أما إذا انقشع السحاب مؤثراً الانسحاب فإن السماء ساعتئذ تشرق بالابتسام وتروع بالصفاء .. صفاء صافيا يستشرف إليه أهل الأرض فى علاقاتهم بعضهم مع بعض فإذا عز عليهم لاح فى أشعارهم رؤى كالأحلام .

* * *

قد يكون الليل فى المدينة مسعداً منعما بما وفرته لها الحضارة من أضواء ولألاء ومباهج شتى ، حتى لو أنك سألت أهل المدن لوجدت أغلبهم إن لم يكن جميعهم يفضل الليل على النهار بما يحسه فيه من روح .. واسترواح وأنس ورقة .. ليل المدينة ترق فيه النسائم ويرق فيه الناس ويتجملون وخاصة النساء .. وترق فيه حواشى العيش فهو مهاه ورغد ، ويرق فيه الحديث فهو سحر ونغم ، ويحلو السمر فهو قصص ندى وهوى رطيب .

أما ليل الريف فشيء آخر مختلف جداً .. إنه رهيب

موحش يدكن فيه كل شيء حتى الخضرة الهانئة يضرب عليها الحجاب نقاباً صفيق السواد فأعواد الذرة الرشيقة النحيلة تغدو مباءة للقتل والغيلة ، والترعة الراقصة تمسى مسرحا للجنيات ومرتعا للأوهام . . والأشجار السامقة التى تحرس النعمة فى النهار تبيت فى الليل مردة عتاة تزيد الجو كله رهبة ووحشة ، وأكواخ الريف المعتمة مذعورة فهى تتقارب وتتضام وتتساند ممسكا بعضها من الخوف بعضاً .. إنها كأطفال القرية تخاف الليل وتهاويل الظلام وتظل فى سوادها عند دخول الليل كاليأس الكافر لا شية فيه من نور ولا لمحة من رحمة إلا أن يتداركها أهلها البسطاء فينبعث من النوافذ الساذجة المتواضعة ضوء أصفر فى احمرار مما تجود به ذبالة المصباح ، تماما كما تتدارك رحمة الله الغارقين فى الظلام حتى وإن قنطوا منها .. هذا البصيص الذى يطل من النوافذ متلعثما كالعيّ ، مترددا كالهياب منانا كالبخيل يصور فى مجموعه القرية كبقايا مدينة أثرية يلفها الغموض ويكتنفها المجهول وتغلفها الأسرار .. الليل فى الريف تهويمة كبرى ترنق على كل ما فيه ومن فيه أيضاً فلا يخرجك منها إلا نقيق الضفادع وقد انتظم منها كورس عجيب يدبره ولا أدرى كيف ، (ما يسترو) ماهر لا تخطئ عصاه فإنى

ما سمعت ذلك الصوت حتى خيل إلى أن السادة الضفادع أو السيدات — أيضا لست أدرى — تبدأ فى وقت واحد وتنتهى فى وقت واحد .. فهى ليست كخفراء القرية الذين يصيح واحدهم بلا حساب وعلى غير انتظار كلما توهم شبحاً فى الظلام أو كلما أراد أن يثبت وجوده وإن كانت القرية تعتمد كثيراً فى الحراسة على الكلاب التى تنبح منذرة بالخطر ... ولكن نباح الكلاب ونقيق الضفادع وصياح الخفراء لا يهز القرية كما يهزها صوت الأعيرة النارية تهزم فى وحشة الليل أو صوت القطار يشق الظلام والسكون بقضه وقضيضه فينبه القرية النائمة كمثل الكابوس المزعج ..

ليل المدينة حال بالنادى والكازينو والملهى فالأطفال يمرحون فى النادى والأصدقاء يسمرون فى الكازينو والساهرون فى الملهى يحيلون الليل نهاراً فالسقوف أنوار، والنساء نوّار والعيون خمر وخمار ، والصدور مرايا تحت أزار ...

والظهور بنور ، والخصور ضمور يثور ، وللرقص حلقات تدور .. فإذا صعدت بصرك إلى أعلى فالخدود تفاح ، والثغور أقاح والشعر ليل وحرير ياليل .

أما ليل الريف فهو خامد هامد يرنق النوم فيه على كل شيء فى الساعات الأولى من الليل بُعَيْدَ المساء هناك لا أحسب الناس بحاجة إلى التوقيت الشتوى والتوقيت الصيفى ولا هم يحسونه إن لهم توقيتهم الريفى وساعاتهم لو وجدت تضبط على صياح الديكة فى السحر أو نوم الدجاج فى المساء . . حتى شاعر الربابة اختفى من ليل الريف كأن الليــل طواه فيما يطوى من مرئيات . . لم يبق للريف من دواعى السهر إلا الموالد أو الأفراح ، ولعل هذا السر فى تجمعهم فيها فهم ما يكادون يسمعون بفرح فى ناحية من البلدة حتى يخفون إليه سراعا يسهرون فيه حتى العاشرة . . هذا هو أقصى موعد للسهر وما دروا أن هذه الساعة التى يقفلون فيها عائدين إلى بيوتهم مهومين للرقاد هى الساعة التى تبدأ فيها المدينة السهر أما متى تنتهى فذلك ما لا يخطر لهم ببال .

وغير ليل المدينة وليل الريف ليل الصحراء هناك حيث يزيد كل شيء فى ذاته فالسماء أصفى زرقة ، والنجوم أسطع ألقاً والسكون أعمق صمتاً والليل أشد رهبة والريح أقوى حركة ، وأكثر انطلاقاً وينعكس

هذا كله على السارين فيها والسالكين شعابها ، فإذا المرء أشف نفسا ، وأطهر روحاً وأصفى تفكيرا وأعمق إيماناً وأقرب إلى الطبيعة وأدنى إلى الله .

هناك فى الصحراء أنت تتشبث بكل شىء يتمسك بك . لا سيما الرمل الذى ما تكاد تطأه قدماك حتى تغوصا فيه كأن فيه مغناطيسا يشدها إلى أسفل فلا تتخلص منه إلا اقتلاعا .

وكثيراً ما يكون تشبثك بأشياء صغيرة لم تكن تحظى منك بلفتة فى المدينة ؛ فظل الشجرة ، ونعمة الخضرة ، ونبع الماء أو حتى مجرد السراب ، كل هذه الأشياء البسيطة فى المدينة تراها فى الصحراء أملا يعز أحيانا حتى يغدو أمنية . . قد تسير المسافات الطويلة جرياً وراء سراب ، وهنا تنثال الذكريات على رأسك وحسك فتحس الوفرة بما لم تحسها من قبل ، وتتجه إلى الله بقلب خاشع خشوعا لا زيف فيه أن يكتب لك العود وكنت عن ذكره غافلا . . ومن حسن حظ الإنسان أن الله منه قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه .

* * *

فى النهار يتكلم الناس ويملأون الحياة صخبا وضجيجاً حتى إذا جاء الليل هدأت الأصوات هدوءاً قد يصل أحياناً إلى الخفوت وبدأت المخلوقات الأخرى فى حديث نجى رقيق على طريقة عيون الأحبة . . وكم من أحاديث سجلها الشعر والأدب أوحاها الليل وأملاها الليل . . يا ليل . . !

هناك حديث الشجر حين تتقارب الغصون كأنها تنقل إشاعات عن الفجر .

وهناك حديث النهر السارح حين ينفرج الموج كتمتمة الشفاه يراجع حساب ما قطعه من مسافات وما وراءه من مهام تتصل بالخصب والخير والانعام .

وهناك حديث السر وهو ألوان . .

أسرار بريئة لست أدرى لماذا يضفى عليها أصحابها (السرية) ويستعينون بالكتمان . . وهى أحاديث لا يضيرها الجهر ولا يزيد الناس بها معرفة .

وأسرار أشواق ضاق بها النهار . .

وأسرار هوى لا تبوح إلا فى حرز من الليل .

وأسرار جوى لا تنوح إلا فى عتمة الليل .

وأسرار لقاء يمد لها الليل فتطول .

وأسرار فراق تقسم فى الليل على تلاق .

وكلها أحاديث يخفق لها القلب ، ويسعد الحب ، ويطيب السرار . وهناك أسرار تبيت فى الليل وأسرار تدبر بليل وهذه كالظلام لها خوف ورهبة وفيها غموض .. ومجاهل ووراءها ترقب وانتظار وأمامها مخاطر وعقبات .. أسرار محفوفة بالمكاره يتهددها النهار بالظهور ويتوعدها الليل بالإفشاء .

وهناك حديث السماء . سمائك يا لليل . .

فيك ياليل يعلن ميلاد الأهلة . . وفيك ياليل تحبو فى مدارج الكمال حتى تستوى بدورا تملأ الدنيا نورا وشعرا . . والبدر فى الليل عاشق معشوق فهو بين النجوم يتنقل من هوى إلى هوى . . مسكينات النجوم هذه تغار عليه وتلك تهفو إليه وثالثة تصبو ورابعة تميل ، وخامسة فى الصمت تقول ، وسادسة من ضجة الشوق لا تهدأ فهى تجول ، وسابعة ترمز بالومض وترسل النور . . للنهر والغصون . . للزهر والعيون . . لدنيا الأحبة . .

فيفرحون به ويغنون له ويمضى شاعرهم يشبه به وجه الحبيب . فى خلوة من حاسد ورقيب . . ويتملى فى نوره حسنه ، ويصف فى ظله مجلس أنسه ونعيم نجواه .

والغيوم أحيانا تكون فى الليل بيضاء عليها مسحة خفيفة من حزن وقور . . وأحيانا تكون كسفا معتمة مربدة كأنها جاهلية ولدت أنثى حتى إذا بزغ القمر تهللت تهلل صابرة بشرت بغلام وعاودها سلامها والصفاء . . وإذا صفت السماء شفت ورقت . . ما أهنأ القلب بالسماء الشفّه . . إنها فى عين الناظر حدقة ماؤها الحب والحنان تهدأ عليها الأنفاس ويخصب بها الإحساس ، ويسبح فى رحابتها الخيال ، ويتنزل من عليائها الإلهام ، وتتراقص فى صفحاتها الرؤى .

عوالم شتى عالمك يا ليل لا تأخذ عينى منه غير لمحات نثار فى حاجة إلى شاعر .

أين شاعرك يا ليل يجليها ؟

أين شاعرك يا ليل يهديها ؟

أين شاعرك يا ليل يغنيها ؟

إن طاقة النثر تتقاصر دونك يا ليل أو لعلك أنت

الذى تتخلى عنها فلا تهب غواليك ولا توحى معانيك إلا لموسيقار أو شاعر .

طوبى لهم أولئك القادرين على تفويف القصيد أو رقرقة النغم .. بثهم يا ليل سرك فإنى ممن يطربون للغناء . . هيا ياليل !

غن يا ليل أودعهم يغنون .

ارو يا ليل إنا سامعون .

أحك يا ليل إنا مشوقون .

غن يا ليل . . هات يا ليل . . ارو يا ليل حديث الصمت أو حديث الظلال . . حديث العذارى فى أحلام اليقظة أو يقظة الأحلام . . أو حتى أوهام الحيارى فى ضلة التيه أو تيه الضلال . . حسبك أن تروى يا ليل وتروى فمنك يعذب السمر وفيك ينصب السامر وباسمك يتردد النداء ويحلو على الترديد .

غننا يا ليل .

هننا يا ليل .

روّنا يا ليل .



في المستشفى

والمستشفى كالمسجد ؛ ففيه أيضاً يذكر الله كثيراً ، وفى المستشفى كالمسجد تلتقى الرهبة بالجلال ، بل لعلها فى هذا تفوق المسجد فإن رواده إنما يخشى الله منهم العلماء والأتقياء ، أما الباقون فقد يكون بينهم من يغشى المسجد رئاء الناس أو ابتغاء الخير أو اتقاء اللوم أو التماس البركات . أما المستشفى فليس منه إلا خائف يتضرع أو متألم أو متململ يلوب . . ضراعات صاعدة هابطة كالممرضات . . ضراعات بيض كثيابهن فليس كمثل المرض بوتقة تصهر النفس وتطهرها وتزكيها ، فإذا بالمريض وإن كان خاطئا أقرب إلى الله من قديس . . وإذا بك يا رب أحنى من أم رءوم ! ألست خالق الأمهات بما طبعن عليه من حنان ؟ . . كل كريم عنك نبع . . وكل جليل عنك صدر . . وكل رحمة أنت باعثها ومهديها .

والمستشفى حرم تجاب فيه الدعوات ، ويحلو من السماء العطاء ، إنها هنا تعطى بلا مقابل من صلاة أو تسبيح قد يكون تزلفا أو على حرف فإن أصاب صاحبه خير اطمأن به وإن مسه شر انقلب على عقبيه ، وقد يكون تملقا أو تقية خشية النار ، ولكن فى المستشفى تشف الحجب بين الله والمرضى ويتصلون به بلا وسيط من إمام أو قس . . يسعون إليه بأنفسهم كما تعود القطرة إلى البحر الذى انفصلت عنه تعود دمعة نادمة وكانت قد ظنت نفسها فى غنى عنه حين ارتفعت إلى السحاب وسارت فى الركاب وحلقت فى الآفاق فإذا بها بعد الطواف وطول المطاف قطرة لاتزال . . قطرة صغيرة ضئيلة لا تقاس حتى بأمثالها مما عند البحر العظيم .

مسكين هذا الإنسان حين يركبه الغرور فيطغى . . ويتجبر ويبغى ويتكبر . . وكأنه شريك لصاحب السموات رفيع الجنبات شديد القوى حاسبا أنه سلم على المرض أو الحادثات حتى إذا أخذ طريقه إلى المستشفى انكشفت عن عينيه الغشاوة وزايل نفسه الصلف وانقشع عن قلبه الغرور فإذا به على حقيقته ضعيفاً لا يستطيع أن يخلق

جناح ذبابة وإذا سلبه الذباب شيئاً لايستنقذه منه . . ضعف كما يقول رب العرش الطالب والمطلوب وهنا يعرف الله ويسأله الرحمة وكان قبلا يوزع الرحمة والعذاب والثواب والعقاب .

مسكين هذا الإنسان حين يظن أنه قادر على كل شيء ما أسخفه إذا ادعى . . وما أضعفه إذا وعى . . وهو لا يعى عادة إلا فى المحنة أو المرض .

وفى المستشفى يسود سكون عميق لا تظفر به الحياة خلف أسوارها حيث اللغوب والتطاحن والصراع . . لقد انكشفت عن النزلاء الحجب فإذا المال بريق ، وإذا المظاهر زيوف ، وإذا المطامع طيوف ، وإذا الصراع ضياع وهدر . . إن أملهم الوحيد ، الصحة — إلى أن ينالوها — على الأقل فكثير منهم يصيبهم النسيان . . فتغيب عنهم ساعات الخطر المروعة ويعلو الصدأ نفوسهم من جديد فترتد إليهم الأطماع والشهوات والحيل فيخلعون مسوح الرهبان التى لبسوها فى المستشفى . . ويستعيرون من الذئب الظفر والناب والوجه الكالح . .

ويمضون فى الحياة مسعورين موكلين . . بالشر فلا يكف
لهم عن الناس إيذاء .

. وفى المستشفى تتصارع الحياة والموت وقد تكون الغلبة
لأقلها صولة وأضعفها شأنا فيحار العقل حين يخطئ
تقديره فلا يخرجه من حيرته إلا التسليم بإرادة الله .

. . وفى المستشفى تأفل حياة وتشرق حياة فمريض تعلن
حياته النهاية ووليد يؤذن مولده بالبداية فيورث الوداع
قرحة ويشيع الميلاد فرحة ويحار العقل بين الحظوظ
والمصائر فلا ينقله من حيرته إلا أن يتمتم . . حكمة الله .

وفى المستشفى من الحياة ألوان وأنماط وقصص . :
مريض يملك المال ولا يملك الصحة وكان قد ظن أنه
يستطيع أن يستولى به على كل شىء فإذا بالمال يجلب
المتاع ويشترى الضياع ويخدع الناس أحياناً عن حقيقة
صاحبه ولكنه أيضاً يعجز عن شراء الصحة أو الحب
أو الضمير .

. وصحيح مُعَافًى ينسى نعمة الصحة حين يفتقد المال
فيشتهى ولا ينال ويغبط المجدودين أو يحسدهم ولو كانوا

مرضى حين يرون هم بملء عيونهم بملء آلامهم ، التاج . . النفيس على رأسه ويتمنون لو يبذلون فيه خزائن قارون .

وفى المستشفى يتجرع مريض الدواء ويتجرع حبيب الغصة وليس أقسى على القلب من أن يبكى بعضه على بعضه .

وفى المستشفى يحرم السهر حتى على عشاق الليل فهنا يسود دستور العصافير لو صح أن عند هذه المخلوقات الرقيقة الرشيقة دستوراً ولم لا ؟ إن العصافير كثيرة الحركة كثيرة الكلام يبدو أنها تستطيع أن تفعل ما تريد وتقول ما تريد فى حرية كاملة لا تشقى بالكبت أو القهر أو التحكم وماذا عساها تريد العصافير بعد هذا إنها أسعد حظاً من كثيرين سواء فى عالم الطير أو الحيوان أو حتى الأنسان .

وفى المستشفى يكثر الأمر والنهى . . إنها من هذه الناحية عالم السدود والقيود ولعل هذا سر نفرة النفس منها وكره القلب لها ولو كان فى تحكمها دفع البلاء ونعمة الشفاء قد يكون بين المرضى فقراء بيوتهم بجحور

أو حتى قبور يعافها الهواء وتزاور عنها الشمس حين تشرق المستشفى بالنظافة وتقبع فى الخضرة وتنعم بالهدوء وتحفل بالعناية عناية الطبيب وعناية المسئولين ولكنها بما جمعت ، فى عين المريض ، سجن كبير يعد الأنفاس ويرهق الإحساس ويستفز الرغبة :

وفى المستشفى يعيش الناس على أعصابهم خاصة أهل المرضى وأوليائهم . . أعصاب كأطراف الإبر فصاحبها منها فى انتفاضة دائمة من أثر الوخز عينه مفتوحة أبدا على الطبيب يقرأ عينيه وشفتيه : يقرأ حركاته يقرأ كلامه ويقرأ صمته أيضاً . . كل شىء يأتيه الطبيب ولو لم يكن مقصودا له دلالة عند المريض وذويه .

وفى المستشفى يغالى الجميع بالوقت كثيراً . . إنه أغلى من الذهب الدقائق لها اعتبارها بل الثوانى . . تعرف هذا جيداً غرفة العمليات . . وهى غرفة لها خطرها فى المستشفى وفى السمع وفى أوهام الناس . . وعند هذه الغرفة تكثر الهمرجة والفتح والقفل والتحضير والتدبير حتى إذا ظهرت الأقنعة البيض تحجب الوجوه إلا من عيون تطل ، سكنت

الحركات وهدأت الأصوات فلا تسمع لها ركزا . . كل شيء يخفت كأن القدر يضع سبابته على فمه ويقول لكل متحرك : صه على رسلك هَدٍّ . . فيصيخ كل . . فإذا استبد القلق بأهل المريض المسجَّى وطال بهم الانتظار على الباب العتيد وبدا لهم أن يقطعوا الصمت الثقيل فإنما الكلام همس ، والخطو لمس والمعانى الكبيرة أو المرهقة تناقش بالنظرات والزفرات بلا عبارات أو حروف حتى إذا لم تفض المناقشات الصامتة إلى نتيجة تستكين إليها النفس الراجفة لم يبق أمام الحيارى إلا وجهك يا رب فتعنو لك الوجوه فى خوف ضارع وعلى الشفاه تمتمة تقول يا رب . . وفى القلوب صلاة تجأر : يارب وأوقن أن الطبيب أيضاً داخل الغرفة يقول . . . يا رب . . ان العلم بما حققه من انتصارات ما زالت أمامه أشواط طويلة إزاء أسرارك المبثوثة فى الكون والحياة يا رب .

وفى المستشفى لا يملك أحد لأحد شيئاً . . لا يغنى والد عن ولد . . هناك يرخص الفداء لو جاز الفداء وإذ يوقن الجميع أنك وحدك صاحب الأمر . . ومنك وحدك الشفاء

وفيك وحدك الرجاء وبيدك وحدك الخير . . لا يملكون إلا كلمة : يا رب . .

قد يجحدك فى النعمة غافل . . ولكنه عند النازلات أشد الناس فزعا إليك ومن عجب يجد فى حماك ظلا ومرتعا . . من جودك انك لا تسأل الناس عند اللياذ بك عما أسلفوا فقد عودتهم انك سميع تجيب دعوة الداعى إذا دعاك ، وأن رحمتك وسعت كل شىء فأيقن الجميع يقين البداهة أن بابك لا يوصد ، وأن فيضك لا ينضب ، وأن قدرتك لا تحد .

لقد رأيت فى المستشفى عجبا فلا كبرياء الكل متطامن يرجوك فى ضراعة ، ولا جعجعة إذ الكل مستسلم يسألك فى وداعة ، ولا غرور فالمرض يظهر الإنسان على حقيقته ضعيفا والقوة لك . . عاجزا . . والحول لك . . متضائلا أمامك يا صاحب الجبروت . .

إنى فى المستشفى أراك فى كل عين وأسمعك على كل لسان . . الكل يناديك . . فى كل ركن من المستشفى تنبعث لفظة « يا رب » . هناك تمحى الذنوب ، وهناك

تخشع القلوب . . وهناك تجأر الألسنة باسمك . . يا رب . .

رب عظيم هذا ما لا شك فيه . . لم أفقد إيمانى بك . . لا شك فى هذا أيضاً لأنى احسك فى أعماق نور النور . . بل لعلى لم أحس بك ملء كيانى كله كما أحسست تلك الليلة . . لقد كنت أبتهل إليك فى كلمات متقطعة من الضعف ولكنها خالصة خاشعة حارة . . أنت رب عظيم وأنت ربى ولكنى عاتبة عليك . . تعبير جرىء بالقياس إليك رب الجلال ولكنه إيمانى بك وحبى لك يجعلك منى دانيا بل يبلغ من قوته أن يرفع الحجب كلها بينى وبينك حتى ليشبه لى أن فى وسعى . . أن من حقى أن أعتب عليك . .

أنت تعرف متى هزت نفسى أمنية أم . . وسرعان ما استجبت لدعاء صامت لم أجهر به لأنك وحدك صاحبه وأنك وحدك صاحب السر والنجوى . . ووهبت حياة وأخذت تنمو الحياة وتعد وعودا تكبر معها على الأيام . . ولكنك لحكمة لا أدريها كما عودنا آباؤنا أن نفسر الحدث يلم سلبت الحياة وبددت الحلم ، وأطفأت الأمل وطوحت

بالرجاء وليس من صفاتك حاشاك السلب أو التبديد أو الهدم يا بانى الحياة والحى .

لقد أسأت التعبير فى حضرتك ولكنى عميقة الإيمان بك . . من إيمانى اساءتى ومن إيمانى طاعتى . . غير أنى طلبت منك ميلادا جديدا والخلق عليك يسير يسير . . لماذا حرمتنى بعد أن منيتنى ؟ لماذا يا رب العطاء ؟ هل تمتحن إيمانى ؟ لقد مرت بى تجربة أقسى فما تزعزع إيمانى بك كما تعلم بل سرعان ما تماسك وصمد ثم أعان على البلاء وخرجت من تجربة اليتم أشف روحا وأصلب عودا وأوسع قلبا وأعمق فهما للحياة والناس . . ولكن الثكل لا تجرع قلبى صابه بعد اليوم . . أنت سويتنى خلقا كاملا . . فلا تدع الألم الكبير يترك ما خلقته حطاما . . إنى عاتبة عليك ولكن قلبى يحدثنى عن إحساس أنك تدخر لى الكثير . . الكثير . . فأنت رب النعمة وأنت رب عظيم نعمتك لا تحصى .

ولكنى أحس فى قلبى انكسارا وترى عينى المواليد فلا أحول عينى عنهم فى جوع واشتهاء ثم أتذكر . . إن جنينى الذى راح كان يمكن أن يملأ يدى وعينى وقلبى

كهذا الملَك الذى ينام على صدر أمه إنى أغبط الوالدات وأدعو لهن .

يا رب اغفر لى صرخات الشقاء التى ندت عنى والحياة . . الصغيرة تتسرب منى مع الدم والأمل الغض يذوى تحت سمعى وبصرى أشد ما أكون تشبثا به وحبا فيه . . كان الألم الكبير أقوى من صبرى فنطقت سخفا وأسأت فى حضرتك بغير قصد منى فقد كنت لا أدرى .

وأحس الآن وخزا يقصينى عنك . . وأحس فى روحى ظمأ يتمنى العودة إليك . . بقدر طمعى فيك أملت ، وبقدر أملى جزعت ، ومن جزعى قلت ما قلت فى سهمة من إيمانى .

إنه ضعف الإنسان الذى عرفته هلوعا ووصفته أنه إذا مسه الشر جزوعا . . أحس إنى أتعلل فمن عبادك أيضاً الصابرون فى الضراء وحين البأس . . طوبى لهم أنك عنهم راض . .

اغفر لى يا رب : :

من يدرى لعلك تلجئنى إلى المستشــفيات أحيانا لأكون على مقربة منك ولتصهر روحى أكثر فتراك أقرب وتحسك أعمق فليس أدنى منك إلى ساحة المرضى والمعذبين .

هناك فى المستشفى كم رأيت عيونا خلقت للسهر وقد قرحها وترك حولها آثاره ولكنها تتكلف الابتسام لأن الابتسام جزء من عملها . . إن الممرضة حين تؤدى واجبها كاملا أقرب إلى الله من عابد دهر .

ورأيت فى المستشفى أقداماً تسعى وقلوباً تطوف ومن بينها ما استقر عندى وعرف بابى . . ورأيت بعينى الصفاء لا يرنقه كدر ، والاخلاص لا يشوبه غرض والحب لا يعلق به تضليل . . وهنا يبدو للمحنة وجه آخر أراه منعما .

ورأيت فى المستشفى بيتى بعين الشوق والحرمان معاً فإذا كل ركن فيه قدس عبادة ومجلى ضياء وعرفت نعيمى به فى الصحة ، واشتقت خلودى إليه بعد كفاح ، وتخيلت أنسى به فى الفراغ وسلامى فيه

والعواصف خارجه تهدر وتصخب . . وعشقت بيتى أكثر . . وأحببت بيتى أعمق وتمنيت فإذا المنى كلها أنى إلى بيتى أعود .

ورأيت فى المستشفى طيفاً حائراً فى لهفة . . ها هو ذا يدنو منى ويحيي إنه أبى بعد سنين طويلة من الغياب . . لقد أيقظته المحنة من رقدة الموت وخفت به إلىّ إذن هو يعرف إنى هنا . . فى المستشفى ! إننا نرفع من شأن الموت كأنه أقوى شىء . . ألا إن الأبوة أقوى منه . .

وسمعت فى المستشفى زفرات حارة وآهات مكتومة ورغبات مسجونة ودعوات صاعدة . . وسمعت صلاة .

لك العتبى ولك الرضا . . رب عظيم قدرته لا تحد . . إن قدرتك لا تحد . . إن قدرتك لا تحد . . .



في المقطّم

كل كلمة تضمها هذه الصفحة أرسلتها عينى لمحة ، وضمها قلبى نفحة واحتواها صدرى شعوراً ، قبل أن تجرى على الورق سطوراً ، قد يذكرها الذاكر ثم ينساها ، ولكنى أنا هيهات أن أنسى يومى المقطم ، وطريقى إليه ، وجلستى فيه ، وحديثى الصامت معه ، ورؤاى .

أما الطريق فهو كورنيش آخر تحايل الإنسان على شقه وسط الصخور . الصخور التى لا تصدق ما حدث فهى تطل على الطريق الجديدة فى فضول جعلها فى سبيل بغيتها تنتزع نفسها من الجبل انتزاعا حتى ليخيل إليك أنها تكاد تهوى هوياً .

وحين كانت الصخور المطلة لا يخفى فضولها كانت مغاراتها وفجواتها وكهوفها تثير فضولى أنا الأخرى ...

ما الذى وراءها ؟ . . ما الذى تخفيه ؟ . . أى سر ؟ . . هل لأسلافى الفراعنة هنا كنز أو أثر . . أنا لا أحسب موضعا فى مصر يخلو منهم فهم فى كل مكان تحل به ، نقش أو رمز أو أثر أو ذكرى أو عبرة أو سيرة أو تاريخ . . لقد راموا الخلود فنالوه فى صور شتى فهم فى عقيدتى خالدون ومصر خالدة .

ماذا أرى ؟ . . كل شىء فى طريق المقطم جديد حتى الخضرة زاهية مغسولة كأنها نبتت لساعتها تحت الشمس ففى تألقها زهو الفرح . . وفى اهتزازها نشوة المرح .

والزهور فى حضن الصخور مستقرة باسمة . . هل لان الصخر ورق كل هذه الرقة ؟ أم أن هذه الزهور الرقيقة الرفافة يكمن فيها سر غريب ؟ به تنتصر دائماً حتى على الصخر ؟ فيتسمح ويفتح لها قلبه ؟ ما أعجبها هذه الزهور قوتها فى ضعفها . . زهور تشق الصخور بالرفيف واللون والعطر وزهور تستولى على الحصيف بنظرة ودل وابتسامة . . رحم الله جريرا فما أصدق قوله :

إن العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله إنسانا

وفى أعلى المقطم قبعت إلى جانب حوض من النبت كانت فيه الفروع الصغيرة والأوراق الطفلة تطل من حافة الحوض ، مثلى ، على القاهرة كما يطل الأطفال من شرفة على الشارع أو على الناس أو على لا شىء . . مجرد فضول عذب لو جاز أن تخلع على الفضول هذه الصفة .

أطفال الطبيعة . . الغصون والأوراق والزهور والفراشات والعصافير . . هذه الأشياء الصغيرة الجميلة الغنية بغير مال . . إنها تملك ما هو أثمن منه . . تملك المعانى والأفكار توحيها وتهديها ولكن للموعود .

هذه فراشة صغيرة أمامى تتخطر من ورقة إلى ورقة كعروس وأحدق فيها فلا أعرف لها لونا . . ليست خضراء . . ليست صفراء . . . إنها مزيج من اللونين معا بعد أن لفهما نور أبيض شفاف . لا تطيرى عنى فراشتى الجميلة . .

دعيني أتأمل دقة الخلق وبدع اللون ! ولكنها طارت . . هل وراءها هي الأخرى من المهام ما يشغلها ؟ أم هو فراغ الخلى وخفة المرح . . ؟

وفى جلستى هذه من أعلى المقطم أطل قلبى وعينى وفكرى على القاهرة الحبيبة ، نعم من أعلى المقطم .. فقد كانت المنازل تبدو لعينى أشبه بتلك التى يعرضها والت ديزنى على الشاشة . . كل شىء يصغره البعد ، العادى منه والمعنوى ، ويكَبره القرب ويُكْبره الحب ، إلا الله فهو وحده الذى يظل فى الحالين كبيراً كبيراً فى العين والقلب . . . والضمير قربه رحمة ورضاء وبعده عزة وجبروت وامتناع . .

كانت القاهرة تبدو كأنها تزحف ببيوتها وعمرانها إلى سفح المقطم . . . لقـــد علته واستراحت هذه الدءوب الطموح وسحبت فى ركابها أعمدة النور وأسلاك البرق . .

عينى ترى منازل للحياة ومنازل للموت كان يظن فى وقت من الأوقات أنها نهاية الأحياء ونهاية حدود مدينة القاهرة فإذا بالحياة تمتد بعدها إلى مدينة المقطم حتى

لتحصرها بينها وبين القاهرة القديمة . دائماً الحياة أقوى من الموت . .

عيني تتزاحم عليها أشـــياء كثيرة يقابل بعضها بعضا . .

على يسارى على امتداد الطرف بساط كبير أخضر تتخلله قنوات مستديرة من الماء كبقع الضوء أو نقوش كبيرة وتقع فى وسطه أشجار كأنها تحرس النعمة . . ثم صحراء تكاد تحيط به . . صحراء جديبة متهضمة الوجه ترك الزمن عليه أخاديد . إن الصـــحراء تحمل معانى الخلاء والخواء والصرامة حين توحى الخضرة معانى النضرة والنمـــاء والرى والليونة والترف ترف اللون والرخاء . . ترف المعنى نفسه . . حتى الأرض تتحكم فيها كالناس الحظوظ والأقدار . لم أبحث طويلا عن السر فقد راع عينى من بعيد المانح الوهاب صاحب الجنة . . إنه النيل الجميل الخلاق . . قادر نهرنا فنان . . لقد ذكرنى هذا المنظر المؤتلف من الخصب والصحراء المثل الشعبي (من جاور السعيد يسعد) ! ما أصدق قومنا وما أذكى فطرتهم . هذا المنظر الذى يشغلنى مصداق

لقولهم هذا . : الأرض القريبة من النيل خضراء فاتنة والأرض البعيدة عنه صفراء قاحلة .

هذا النيل الذى ينساب فى مصر حتى ليخيل إليك أنه لا يخلو منه مكان فيها فهو يسافر معك من الجنوب إلى الشمال وتقطع أنت رحلتك فى ساعات قد تطول وقد تقصر ، ويظل هو على سفر لا يكف عن المسير كالليل والنهار ، غير أنه لا يغير موضعاً ولا ينسخه شىء ، وقد تنتهى الرحلة إلى القاهرة ، وغالبا ما تكون فتشتملك المدينة العظيمة وتغيبك فى زحامها كما تغيب القطرة فى البحر العظيم ، ولكن العظيم القادم معك من الجنوب له مع القاهرة شأن آخر . . إنها لا تقرر مصيره بل هو الذى يقرر مصيرها على عظمتها وأبهتها ، بل إن هذه العظمة والأبهة ما كانت لتكون لولاه ، فأفخم أحيائها جزيرة فيه يعيش فيها الكبراء والسراة . . وأرباب المال والنعمة وأصحاب المناصب والجاه ، وأهم شوارعها تلك التى تسير محاذية له وتدور معه ، وأغلى مبانيها تلك التى تطل عليه وتتملى منه وتتمتع به . . عليه تقوم

منتدياتها ، وإليه ينجذب زوارها وبه تحيط قلوبها .
أينما سار تمتد القناطر والجسور ويشيع العمران ويسرى النور . إنه حياتها وحياة مصر كلها ، رب النعمة ، صاحب التاريخ ، صانع الأحداث .. خالق الحضارة نعمة سابغة .. وتاريخ مجيد . . وأحداث جلى . . وحضارة عريقة . . مبدعة رائعة جامعة أنفس الحضارات طرا منذ عاش على الأرض إنسان .

هذا النيل الذى ينساب فى مصر حتى ليخيل إليك أنه لا يخلو منه مكان فيها تعجب معها كيف تخلو بيوتها من الخضرة تحيط وتجمل وتريح ، ولو استهدت النيل لأهداها وأغناها ، فكم أهدى وكم أغنى . . وكم أفنى على طول السنين والأحقاب .

ماذا أرى ؟ القاهرة يحجبها عنى ضباب رمادى ، ويح عينى ماذا ترى ؟ هل مدينتنا فى معركة يلفها غبارها — ما لنا نخشى عليها المعارك ما دامت قاهرة طال الزمن أو قصر . . وما لبثت الشمس أن بددت مخاوفى فنشرت عليها الضياء وكساها منه دافق من النور

أبيض وهاج وضحكت لى من بعيد القاهرة . . الجميلة الآسرة . . العظيمة الآهلة . . أسفرت على يمينى المنازل الكبيرة والعمارات الشاهقة ، والمآذن السامقة ، والقباب . . ما أحفل تاريخ الإنسان بالعبرة هذه القلعة بقبابها المتدرجة فى الارتفاع تمثل تاريخا فى العيش والتفكير . . كان الإنسان حين بناها . . يحتمى بالحصون والقلاع يشيدها على ارتفاع ، وينشد عندها الملاذ والامتناع ويرمز بها إلى القوة والضمان فإذا به اليوم بعد غزو الفضاء وسيادة الطيران يرجع إلى الأرض — وما أكثر ما يرجع إليها — يودعها ذخائره وينحت فيها خنادقه ويخشى وراءها من عدوه . . هذه الخالدة الباقية . . هذه الأرض الطيبة منها خلق وفى رحابها نشأ وفى مناكبها مشى وبها شب وعليها خرج ! وإليها يعود !

* * *

السماء فوقى قبة الله لم يصنعها بناء ولا يجوز عليها الفناء . قبة طاهرة . . إليها يصعد الدعاء ومنها يترسل النور وينهل القطر . . قبة باهرة . . حالية فى النهار بالشمس والضياء ،

ناعمة فى الليل بالبدر والسناء . . بالنجوم والشعر حتى السحاب يزيدها فى الحالين فتنة وروعة .

كل شيء أمامى يحدثنى ويروى لى قصة ويجلو لى معنى ولكن أقوى الجميع شخصية . . الإنسان . . أصغرها حجما ولكن سره الأكبر عقله وقلبه هذان الصغيران . . يتجاوزان الحدود ويعبران به البحور ويصعدان به القمم وهما أبعد من الحدود ، أعمق من البحور ، أرفع من القمم . لقد تخطى تلك ، وغاص فى أعماق الأخرى ، وعلا هذه ، واستوى عليها . . استوى جسما وعقلا وطموحا لم يبق إلا أن يرتفع غرضا ووسيلة . . فهو لم يبرأ بعد من الطمع والأثرة . . من الغل والشهوة . . من الحسد والحفيظة . . وحين تنحدر غرائزه تنحط معها وسائله فلا يتورع عن الدس والمؤامرة ولا يتفزع من الدم والغيلة ولا يتعفف عن البغى ولا يتأفف من المنكر ، ولا يتنزه عن الشر ، حتى لتوشك الأرض التى فنيت فى تعميرها وتجميلها أجياله ، أن تنقلب إلى غابة وحشية ، يطغى على الحمل الوديع فيها أسودها .

مسكين على رجاحة عقله ! آفته الغرور وداؤه الظهور . . هواه أن يظهر على كل شيء حتى نفسه . . إنه لا يطيق الاختفاء

حتى فى الموت فهو يبنى مقابره ظاهرة على سطح الأرض وإن ثوى هو فى بطنها . . هذه المقابر أقوى الأدلة على ضعفه ومع هذا لا تخلو من معانى قوته وتحديه . . ترى ماذا هو صانع غدا . . إنه يحاول الآن بعلمه أن يطيل العيش ويبدل الأعضاء ويقهر الأدواء . . هبه فرغ من هذا كله وبلغ منه مأربا هل يسلم عندئذ على الموت . . والحادثات ؟ أشك فى هذا ؟ .. وإن سلم هل يستريح ويحس السعادة المنشودة ؟ .. أشك فى هذا أيضا .

* * *

من القمة هنا أرى كثيراً . . ولهذا سميت المستويات . . الرفيعة العزيزة من الفن . . « من أعلى القمم » ومن أجل هذا فيما أحسب نحيي الواصلين إلى أعلى القمم فى الآداب والعلوم والفنون .. إنهم يرون ما لا نرى ، ويكشفون من عوالم المادة والحياة ما لا نحيط .. وهو شأو رفيع من الامتياز يستهوى عباد البطولة . . وما أكثرهم . . فيمجدون أصحابه وما أجدرهم .. بتمجيد .

* * *

هاهو ذا الليل قد أقبل يلفنى ويلف مدينة المقطم . .

وطنى . . أحببتك يا وطنى . . أحببتك يا بلدى . . أحببتك بحواسى وقلبى معا . . أحببتك فى شغف وفرحة وأنا أطل عليك من جبل المقطم والليل يسبل على جمالك أستارا . . شفافة لا تحجبك ولكنها تزيد جمالك فتنة وسحرك أسرا وبهاءك روعة ، وسلامك أمنا ، وهدوءك صفوا ونورك ألقا ، كنت ألاقا تتوهج فى حضن الليل بالثريات والمصابيح تصورك لعينى الولهى كأنك مكلل بالماس تتماوج أضواؤه وتتداخل انعكاساته عليك يا ساحر .

كل هذا الكنز الذى هو أنت أحسست أنه لى وحدى ، لى خاصة من دون العالمين . . فوق جبل المقطم . . ألست وطنى وأليست هذه القاهرة التى أتملاها ترفل فى النور ، عاصمتك أوعاصمتى .. من أنت ومن أنا . . إننا واحد لا يتجزأ . . إذ أنى لا أعدو أن أكون بضعة منك . . إذن هذه الدور دورى . . وهذا النور نورى . . وهذا البلد وطنى . . إننى مصرية من مصر .

وفى شرفة رحيبة تتابع القوم واحدا إثر واحد يطلون عليك ويرون البُهر الذى أرى . . كنت مزهوة وأنا أنظر إليهم إذ ينظرون إليك فى موقف رائع مشرف

شامخ ، ياعظيما يطاول حاضره ماضيه ، فأنت وطن المجد وأنت وطن الوجد وأنت وطنى .

ليت الذين يجحدونك يشاركوننى وقفتى هذه فوق جبل المقطم ويرونك بعينى أو حتى بعيونهم فما من إنسان يقوى على إنكارك فى هذا المكان بالذات . . فى هذا المنظر بعينه . . بل ليت الذين يجحدون الله أو ينكرون وجوده يرونك من فوق جبل المقطم فأنت بلا مراء خير شاهد على وجوده . . خير دليل على جوده . . خير برهان على قدرته . . خير مثال على صنعته . . أجمل بقعة فى دنياه فى عينى على الأقل . . أصفى أفق فى سماه . . ألست الوطن الذى غمره طوفان من نور حين تجلى الله عليه وكلم فيه موسى من سيناء تكليما ؟ ؟ ما زال الله يشرق عليك من علٍ . .

ولكننى فى نشوة الواجد لاح لى خاطر فزعت منه . . إن هاتفا شريرا يهمس فى أذنى . . كل هذا الجمال محسوب على وطنك . . هتفة لا تخلو من صدق على نفرتى منها . من أجل هذا يتزاحمون عليك . . من أجل هذا يطمعون فيك . . من أجل هذا يحاولون تعويقك . . إن إمكانياتك . . كثيرة . . إن قدراتك لا حد لها . وهم يعرفون . . وهم يفزعون . . وحين يتملكهم الفزع ، ويسيطر عليهم الخوف ،

يحاولون الحد من انطلاقك . . والحط من شأنك . . كذبوا وخابوا وسلمت أنت لنا وللعالمين .

إن التجوال فيك يدنيني منك بما يعمق من حبي ويزيد من إيماني كل شبر فيك الآن لى معه قصة أو له قصة معى ؛ فأنت بالنسبة إلىَّ « لست السماء . . على صفوها . . ولست الأرض . . على خيرها ، ليس هـذا فحسب بل السماء والأرض ، والخير والخفض ، والقصص والذكريات والرؤى والأخيلة ، ومعالم التاريخ ، وأمجاد الأدب والفن والعلم ، ودفء البيت ، وعز الأسرة . . أنت . . ماذا أنت . . زاد العين والقلب والشعور والعقل جميعاً .

لقد رجعت من جبلك المقطم بعد أن أوغل الليـل فى الظلام والبعد وكان الطريق إلى المدينة الجميلة القاهرة شريطا كثير المنحنيات تكتنفه من على الجانبين صخور ضخمة ينم نتوء ها البارز على فضولها كأنها موكلة بإحصاء من يمرون على الطريق . . هكذا رأيتها فى النهار كما حكيت . . بيد أنها لم تتعب بعد من وقفتها هذه وهى اعتراضها وجمودها وشموخها ودكنتها موحشة لا تخـلو من رهبة ولكن هذه الصخور على وحشتها ورهبتها عزيزة على » . . أحببتها أيضا من أجلك أليست منك هى الأخرى . . من يدرى ؟ لعلها —

كما قلت ــ تضمر أسرارا من تاريخك أو أخبارا من تاريخ الزمن على أرضك . . من يدرى لعل للمجد المصرى بقية مطوية بين كتلها المتراصة . . أو نقوشا مسطورة على صفحاتها تغطيها الرمال .. من يدرى ؟ . . خاطر يلح علىّ فى إصرار لا يتزحزح كهذه الصخور التى نعيب عليهـــا عنادها . . ولكن يبدو أنها أورثتنا إياه .

وبعد عودتى عشت أياما فى هذه الصفحة من قصتك : لمحة واحدة منك قادرة على أن تغرق حسى وروحى فى مباهج لا تنفد . . لا تفنى لا تنتهى .. لمحة واحدة . . ما أعظمك . . ما أكرمك علىّ .. وعلى قومى وعلى الحياة والناس .



في العيد

من يصدقنى إذا قلت إن حديث اليوم من وحى العيد ! أى والله العيد وانطباعة من انطباعاته ! أليست القرافة جزءا مهما من برنامج العيد عندنا ؟ . . ولكن للعيد جوانب زاهية فلماذا اخترت هذا القطاع على قتام فيه ؟ ولكنى أقول إننا نعيش لحظاتنا السعيدة . . وساعاتنا الزاهية ، أما الشقية فإننا نحكيها فدعونى أقص عليكم قصصا من القصص إن لم يكن بأحسنه فهو لا يخلو من عبرة أو معنى حرىّ باللبث عنده والوقوف .

هناك فى حى الراحلين لا تظفر بالصمت الذى قدرت من زحام . . زحام فى الأشخاص والأصوات والحركات والمعانى والعبر .. ولعل أشد هؤلاء إثارة للانتباه .. الفقهاء ..

هؤلاء الفقهاء مَعْلَم بارز من معالم (القرافة) فهم فى (المواسم) يجوسون خلال المقابر فى البكرة الندية

يمشى الواحد منهم يتدلى ذراعه إلى جانبه ويتدلى من الذراع جعبة خاوية انطبق بعضها على بعض ، أما عيناه فهما تدوران فى كل اتجاه كالصائد الذى يتشمم ريح فريسة حتى إذا لمح على البعد شبحا جلله السواد حث الخطى نحوه وتنحنح وسعل فإذا دنا منه ألقى تحية الصباح . . وقبل أن يجيئه الرد يعرض خدماته ثم يردد عبارات محفوظة فى حكمة الحياة والموت والزوال والبقاء يستنزل بعدها للمرحوم الرحمة ، ثم يعود إلى موضوعه الأصلى فيقترح على السيدة المحزونة أن يقرأ سورة فإذا هبطت عليه بعد طول إلحاح ، الموافقة ، قعد القرفصاء وأخـــذ يتلو متمهلا مجوّدا ، وعيناه . . عيناه لا تستريحان من مهمتهما بل تظلان كما كانتا تدوران فى كل اتجاه ، حتى إذا لمحت على البعد مرة أخرى شبحا أسود ، أسرع فى القراءة متخطيا آيات مزدردا أخرى ، وكأن مسا من كهرباء سرى فى لسانه وجسمه كله ، فهو ينهب السورة نهبا حتى يصل إلى آية مباشرة تصلح للوقوف عندها ثم يهب واقفا وقد مد يدا فى انتظار الأجر ومد رجلا على استعداد للعدو واللحاق بالصيد الثانى . . وهكذا . . هكذا يظل واحدهم يومه كله فى مطاردة . . واقتناص . . وأكثر السور دورانا على ألسنتهم (الكهف) و (الرحمن)

لست أدرى السهولة يحسونها نحوهما من طول ترديدهما أم بناء على طلب « الزباين » فإن لهاتين السورتين جاذبية خاصة عند السيدات والكبيرات خاصة وفى سورة (الرحمن) موسيقية عذبة لأنها تجرى فى الأسلوب على نظام الفواصل مع القصر والتتابع والألف فى الآية التى تتخلل السورة كثـيرا (فبأى آلاء ربكما تكذبان) حرف المد هذا مريح ، ثم الصور الجميلة فى السورة . . النعيم الموعود فيه من كل فاكهة زوجان .. ونخل ورمان وحور عين كأمثال اللؤلؤ والمرجان .. تستهوى العجائز أو لعلها تعزيهن فى مغرب العمر عن الدنيا (الفانية) التى تتسرب من بين أصابعهن ، الواهية ، والتقيات منهن خاصة يرتحن إلى هذه السورة راحة عجيبة . . إنى كلما سمعت هذه السورة تملأ علىّ صورة جدتى خيالى ونفسى ، بل تملأ علىّ المكان كله ، فقد كانت تصغو إلى المقرئ وهو يقرؤها فى استغراق وحنان وتتمتم ، وأذنى تسمعها كلما ورد ذكر الجنة « لم يتمتعوا فى الدنيا يتمتعوا فى الجنة ونعيمها » وتنشج روحى من أجلها ومن أجل أعزائها أعزائى — حتى إذا انتهت السورة أحست أمى الكبيرة براحة كبيرة تسرى بدورها إلى ، وكأن السورة سكبت عليها برد الرضا وشآبيب الرضوان .

ولكن أشد ما يغيظنى من هؤلاء ازدرادهم كلمات الكتاب الكريم وخاصة فى هذه الآية التى أعدها لوحة رائعة لا أمل النظر إليها والتعمق فيها (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ، ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا . . وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا) .

هذه الطاقة الهائلة من المعانى والصور التى شحنت بها الألفاظ . . أى كهف هذا وأى أناس أولئك الذين راحوا فى سبات عميق . . عميق لا يحسون معه نأمة ولا يسمع لهم ركزاً . . ليسوا من الدنيا اليقظى حولهم ولا الدنيا منهم حتى الشمس تزاور عن كهفهم فى المشرق والمغيب . أنا عاجزة عجزاً تاماً عن نفض ما بنفسى من الأحاسيس نحو هذه الكلمة « تزاور » بما فيها من عزوف مقصود أو غير مقصود . . بما فيها من تجاهل . . بما فيها من اعراض ، إن الشمس التى تزور الدور كالقصور بدون تمييز

أو محاباة تزاور عن كهفهم . . لقد ماتوا أحياء فهم كالميئوس منهم لا نصيب لهم فى مقومات الحيـــاة من هواء وضياء .

هذه الآية المشحونة بطاقات التعبير وقدرات الكلمة الغنية بالرمز والإشارة تضيع فى تطوحات رأس الفقى . . ورقبته المترنحة . . تضيع على لسانه الذى يدور . . . كالطاحون ينهب السورة نهباً فيأتى عليها فى دقائق تمسخ المعانى والصور وأرق وأجل فنون البلاغة . . أنا أعرف كلمة فقيه بمعناها المقصود من التسمية كلمة جليلة عالمة ولكنها حين خرجت عن مدلولها الأصـــلى لتطلق على هؤلاء الأشقياء نصل لونها وهانت . . حتى لتذكرنى بالمثل الشعبى (من خرج من داره اتقل مقداره) وكثيراً ما تصدق الأمثلة على الأشياء كما تصدق على الأشخاص . . وأنا أسوق هذه المقدمة . . التى تأتى على غير عادة المقـــدمات فى وسط الكلام كالاعتذار أقدمه بين يدى « القارئ » عما سأرويه عن هذه الطائفة التى يطلق عليها خطأ لفظ (الفقهاء) .

ومن (الفقهاء) من إذا عرض عليك خدماته وحدث

أن رفضت ، فإنه لا يبالى رفضك هذا بل يجلس من تلقاء نفسه حيث انتهى بك المسير ويأخذ فى التلاوة ، وعبثاً تثنيه عما شرع فيه . . لقد صمم . . إذن قضى الأمر . . . فصاراك أن تلكزه بعينك المزرورة . . وتركله بشفتك المقلوبة . . افعل ما تشاء فإنه لا يبالى . . ومثل هذا الصفيق الملح لا يتورع بعد أن تنقده أجره أن يسألك (الرحمة) فإذا ألقيت إليه فطيرة مما تحمل لينصرف . . وتتخلص منه عرج عليك بالسؤال من جديد هل من بلح أو خيار كأنه أسهم فى التكاليف .

ومن هؤلاء من يتلو بلسانه وسمعه منصرف إلى ما يدور حوله من حديث فيقطع القراءة ليدلى برأيه فى أمر من الأمور المطروحة على بساط المناقشة والجدل ثم يصل الآيات حيثما انقطعت على لسانه الفضولى .

ومن هؤلاء من يحلو له الشد والجذب مع السيدات من زائرات (القرافة) فإذا طلبت إليه إحداهن أن يعطيها الباقى زعم لها أنها استهلال يومه وأن نهاره أبيض وإن كانت هى ترى فى اليوم رأياً آخر حسب درجة حزنها على من فقدت فتعود هى تؤكد له أنها لا تملك قطعاً صغيرة

من النقود فيقسم ويغلظ فى القسم أن جيبه خال كجعبته وكبطنه أيضاً فهو لم يتناول الفطور بعد ، وهى دعوة فى صور شتى إلى النفائس المكدسة فى السلال التى تقوم على يمين ويسار مما كان يحبه الميت فى حياته أو مما طلبـــه فى الأحلام . . فإذا انتهزت السيدة الفرصة للضن عليه رمت إليه بنصف قرش زاعمة أن هذا النصف اليتيم هو كل ما تحمل من الفكة ما دام هو الآخر بدوره ليس معه (فكة) وهنا يصعق ويتولاه الذعر من انتقاص أجره عما قدر ، فيتظاهر بالتسليم لأمر الله ويدس يده فى صدره ويخرج من دروبه وحناياه كيساً مغبراً من الدمور مملوءا (بالفكة) فيجيبها إلى طلبتها ليحصل على القرش كاملا غير منقوص .

وأحياناً يتنازع الفقهاء ويأخذ الواحد منهم بتلابيب الآخر إذا تسابقا فى لقاء طيف قادم ثم وقع الاختيار على أحدهما دون الآخر فيدعى كل منهما أنه كان السابق فى الوصول أما الآخر فمتطفل عليه أو على الزبون . . وبعـــد تشابك سريع وتلاح يأخذ واحد فى القراءة ليؤكد اختياره حين يظل الآخر يعرض حلولا للمشكلة التى لا وجود لها إلا فى ذهنه وبعض هذه الحلول أن يقرأ

معه أو يقرأ سورة أخرى بعد أن يفرغ من قراءته ، فإذا لم يجد أحد الحلول قبولا اقترح على السيدة أن تتحفه (بالرحمة) على سبيل التعويض . فإذا انصرف مشيعاً باللعنات قطع الأول القراءة ليغتابه معدداً مظاهر جهله بالقراءة وجهله بالأصول أيضاً وكيف أن الله يخصه من دون عباده بغضبه والعياذ بالله . . فإذا وجد أذناً صاغية استرسل بما يفتحه الله عليه هو ، أما إذا لاحظ انصرافاً عنه أو زهداً فيما يقول أخذ من جديد فى القراءة ، فإذا فرغ منها لم ينتظر التكليف للمرة الثانية بل يسأل على عجل عما إذا كانت السيدة ترغب فى سورة أخرى وقبل أن تجيب يأخـــذ فى قراءة السورة الأخرى ألم تختاره دون زميله ألا يكفى هذا تزكية وسبباً لمواصلة القراءة ؟

ويظل الفقهاء هكذا حتى إذا بلغ النهار متوع الضُّحى ألفيت (القرافة) خلية نحل أو خلتَ المقابر أعشاش زنابير من أصواتهم المتآكلة أو المتسلخة أو الفجة أوالمجلجلة أو المتصايحة أو المبحوحة . . وهذا الخليط العجيب من أصواتهم يتداخل بعضه فى بعض ويعلو بعضه بعضا ويشوه بعضه بعضا حتى

تغدو (القرافة) مملكة للنحل كما قلت أو البرابرة حين يتصايحون من كل جانب كما تتصايح الديكة دفعة واحدة فى (طلعة) الفجر .

وعند الفقهاء استعداد كامل للثرثرة مع السيدات وقص النوادر عليهن ، وأغلبها إن لم يكن كلها يدور حول قلة الخير فى الرجال الذين يتركون الزوجات الكاملات المعانى ليتزوجوا من أخريات دونهن جمالا وحسبا ونسبا ولكنها فراغة العين أو نكد الطالع أو فساد الزمن . . ومثل هذه الحكايات تفتح شهية السيدات للكلام ولعن الرجال الخونة المناحيس الذين طمس الله عيونهم فلم يروا ما يتمتعن به من جمال وتدبير ومهـــارة فى الطهى . . تبدع كل الأصناف والأشكال والألوان . . . ومن هذه الطائفة فقيه المرحوم بيرم التونسي ، فليرجع إلى قصته من يشاء فى ديوان الفنان العظيم . .

ومن هؤلاء من يقرأ بلسانه ، أما حواسه الأخرى فقد استحالت أنفا مع أنفه الأصلية ، فإذا كشفت السيدة غطاء السلة لتطلع زائراتها أو جارتها فى المدفن المجاور على جمال الفطير وما أودعته فيه من مسلى بلدي

يرد الروح لولا خيبة الخباز الذى لم يطامن من ناره فلفح وجه الفطير الغالى الذى باتت صاحبته الليل ترققه وترصه رصا . . وتأخذ المرأتان فى ثرثرة تقليدية حول هـذا الموضوع بالذات بينما صاحبنا تكاد رقبته تنخلع من بين أكتافه وعيناه تركض حدقتاهما فى محجريهما تختلسان النظر الجائع إلى السلة المكشوفة تغازله بما فيها ، وفى هذه الأثناء يرفع المنصوب وينصب المرفوع ويقـدم ويؤخر وهو لا يدرى ، حتى إذا لاحت من صاحبة السلة التفاتة إليه وهو على هذه الحال أوسعته سبا مما تحفظه بنت البلد عن ظهر قلب وتتدفق به عند اللزوم فيقسم أنه لم ير شيئاً وأنه لا يريد شيئاً فكل شىء فى متناول يده حتى ليكاد يزهد فى هذا الذى تعتز به حين لا قيمة له عنده فيتصافيان على هذا الأساس ويأخذ فى القراءة من جديد وعند ما يفرغ ينسى أو يتناسى ما قال ويطالب (بالرحمة) .

و (الرحمة) هذه لها قصص هى الأخرى ونوادر : فمن الزائرات من تعتقد أن الرحمة لا تجوز ولا تؤدى مهمتها من الإضاءة والنور إلا إذا أهديت لنظراء الميت فى العمر أو طردائه على الأقل ، أما ما عدا هـذا عكسا وطردا

فلا يستحقون ؛ فإذا طلب إليها طفل مثلا أن تعطيه (بالرحمة) صاحت فيه وهشته كذبابة . وإذا دخل عليها المدفن عجوز نهرته فى نظرة حاسدة ثم تلعن الدنيا التى تمد لمثل هـــذا الصعلوك فى العمر حين يخترم الموت زين الشباب . .

وهكذا تختل القيم وتتداخل المفاهيم فى هذا المسرح العجيب الذى نسميه (القرافة) . . .

وأثناء هذا يخطر (التربى) بين المقابر محييا صاحباتها واقفا بكل واحدة لتنقده (الموسم) مصحوبا بالفطائر والبلح والخبز وما شاكل هذا ؛ فإذا أرادت واحدة أن تنتقص منه شيئاً أو تضن عليه بما يطمع فيه تعللت بأسباب شتى أقواها : أنه لم يعمل لها ألف حساب فلم يغط أرض المدفن بالحصر اللائقة بالمقام ، فحصيره بال والزير فارغ والقلل تشكو الظمأ . . ثم أنها عند ما حضرت وقفت على قدميها الساعات تناديه ولا يجيب حتى لفحتها الشمس حين كانت تتعجل رؤية (الشاهد) والتملى من الروح المرفرفة عليه شوقا إليها . . .

وهذه القصة الطويلة ألفتها أذن الرجل فأصبح يفهم مرماها منذ البداية حتى ليكاد يُسمّعها كتلاميذ . . المدارس الابتدائية لو أن المرأة الثرثارة أتاحت له فرصة الكلام . المهم أنه يجد المخرج فى الاعتذار الواعد والقسم المؤكد أنه فى قادم . . سينتقى لها أحسن الحصر ويرتب المسائل كلها وفق هواها لأنه ليس عنده أعز منها ومن المرحوم ولكن المرأة لا تقتنع بهذا الكلام الذى سمعته هى الأخرى مرات ولم تر بارقة تنفيذ للوعود المتدفقة من تحت شاربه الكث فتكتفى بإعطائه عددا من الأرغفة فيسألها فى تلميح كالتصريح بصوت ماكر ونظرة نافذة متهانفة عما إذا كانت صنعت بيدها الصناع فطيرا أم عاقها لا قدر الله عائق هذا العام . .

وللنساء كالفقهاء نوادر لا تنتهى فى القرافة يخرجن من نزاع ليدخلن فى نزاع . . تقف الواحدة منهن ببنت جنسها بائعة (الخوص) فتهوّن من بضاعتهـــا . . وتبخسها أشياءها وتشترط عليها أن تكثر فيه من الورد والريحان حتى تتنزل الرحمة وينهل الغفران والرضا ، وتظل المرأتان فى أخذ ورد حتى إذا ظفرت الشارية بطلبتها واستقر السعف المحلى

بالورد فوق المقبرة وأخذت السيدة مجلسها بالقرب منها ثم انصرفت عائدة بعد أن تنازع (الفقى) على دانق وتنازع صبى القرافة ، على دريهمات قفلت راجعة إلى دارها مخلفة وراءها (الخوص) الذى نازعت فى البداية بائعته عليه فيأتى حارس القبور ليسلبها مايعلوها من ورد زعمت صاحبته أنه وسيلة الغفران .

وتستقبل النساء القرافة صائحات مولولات متباكيات تأكيدا للحزن أو حتى صادقات فيه فإذا أفرغن شحنتهن أخذن فى الثرثرة والنميمة ، وأثناء هذا يعددن محاسن الموتى — كأنها فترات استراحــــة من الشر — حتى ليخال المرء أن الموتى جميعا بررة أنبياء حين ذهب الأحياء وحدهم بالشر وبزوا فيه الشياطين .

ولكن أقسى ما تأتينه النساء من عمل فى ذلك اليوم هو التحامل على الحمار المسكين وكأن بينه وبينهن من دون سائر الحيوان ترة قديمة ، فهن يتكأكأن عليه وقد ظاهرهن صاحبه فى سبيل الرزق فينصب لهن لوحا عريضا فوق العربة يتربعن فوقه عشرات وقد تداخل بعضهن فى بعض وتساندن فى اتحاد قلما يتم بينهن في مكان آخر ؛ ويمشى الحمار المسكين

مطأطئ الرأس وقد ناء بحمله لاعنا فى سره ذلك الذى سمى هؤلاء (الجنس اللطيف) .

وفى مداخل القرافة يتخذ ذوو العاهات مكانهم المختار فيجلس كل واحد منهم فى وضع يجلو عاهته للناظرين والمارة مستدرا العطف والرثاء بصوت أجش يطرد العطف ويبدد الرثاء . . أيدخر هؤلاء هذا الأذى للعين والحس فى يوم العيد فلا يقع فى شراكهم إلا ذوو الغفلة ممن لم تبلغهم بعد نوادر غناهم وقصص ما يكنزون من وراء الاستجداء على هذه الصورة المنفرة ؟

وليس معنى هذا أن القرافة تعج بالسيئات حتى لا مكان للحسنات ، فإن ارتيادها نفسه فى ذلك اليوم معنى كبير من معانى الوفاء لولا ما يشوهه من عادات فاسدة . . ولشد ما يأسر نفسى إصرار بعض أصحاب المقابر على زراعة الصبار فيها رجاء وعزاء . . ليت شعرى من أحوج إلى الصبر . . ذلك المسجى تحت أطباق الثرى فاقدا نعيم دنياه أم ذلك الذى ينفطر حزنا عليه وليس إليه من سبيل غير الدموع والحرقات ؟ ولكنه الصبر والتأسى خير بلسم للجراح .

* * *

والقرافة منبع ثر للقصة فهناك حيث تغيب الروح تدب فى

كل شيء الروح .. فمهبط الظلام وتهاويل الليل وزفيف الريح كلها فى نظر العجائز والراسخات فى العلم من بنات البلد ، شياطين تتشكل أو تعبث أو تتستر بالظلام أو تتربص بالسارين فى الليل لتباشر مهمة الإيذاء فى هذا المسرح وخاصة حيث تجثم قبور الغرقى والحرقى وضحايا الحوادث .

وبنات البلد من زائرات القرافة تدب فى قلوبهن الرحمة فجأة على القطط والكلاب فى المقابر ، فإذا حاولت أن تصرف عن المكان قطا أو كلبا حدجتك إحداهن بنظرة من طرف كحيل وكأنها تقول : من يدرى هل هذه قطة أو شيء آخر ؟ وعبثا تناقشها فإن معتقدات بنات البلد مما لا يجوز الجدل فيه . وقصصها التى تؤيد بها هذه المعتقدات . . . لا تنفد . . .

وفى القرافة مجمع المتناقضات ، فهناك حيث يبدو الموت أبغض الأشياء خاصة للمرزوء به الذى لا يرى فيه إلا الشر.. هذا الموت بعينه مصدر خير ونعمة للحانوتى وحارس القبور .

وهناك حيث يحمل الموت – أو يُظن به هذا – على الزهد والتعفف ما دام هذا هو المصير ، فإذا به نهاية

وإذا به بداية . . نهاية مطاف فى رحلة الحياة وبداية صراع حول الميراث أى عروض الدنيا . . إذن رهبته لم تكن إلا لحظة صعود الروح إلى بارئها .

وفى القرافة تبدو القبور التى تغيب الأحبة كريهة غاصبة ثم تراها العين نفسها أقدس مكان لأنها تحتويهم حتى ليهيب شاعر المعرة بالسائر أن يخفف الوطء فى خشوع .

وفى القرافة حيث المـــوت يسوى بين أصحابه مهما اختلفت حظوظهم فى الدنيا نراه لا يخلو من حظوظ ولو ظاهريا ، فميت تحيط به حديقة وتظلله الزهور حتى ليذكرنا بعمر الخيام أو صاحبه الحسن بن هانئ ، وميت يثوى فى العراء يعبث بحرمته الصبية الذين يتعمدون قضاء حاجاتهم عنده . . وبعد هذا الذى ذكرته عن القرافة وهو بعض من كل ألا ترى معى ظلالا كثيرة لمصر القديمة ؟

فتناسخ الأرواح والقرينة والأهمية الخاصة التى تكتسبها الحيوانات وغير دلذا من المعتقدات السائدة فى القرافة إنما هى رواسب من الماضى القديم . . .

إننا إذا تأملنا ظاهرة (زيارة القرافة فى ذاتها) وتكرار هذا العمل فى أيام وأعياد كثيرة تبينا اتجاها خفيا

نحو الموت تسرب إلينا عبر الزمن من مصر القديمة التى كانت حضارتها تتغيا الموت فى النحت والبناء بل فى الفنون والعــلوم . وفى المتحف المصرى تمثال للملك توت عنخ آمون والملكة تقدم له فرعين يمثلان جريدتين من نخيل . . دعاء بطول البقاء ورمز له . . لأن النخيل طويل الأجل ، وقد تسرب هذا إلينا فظهر فى وضعنا جريد النخيل على القبر هدية للروح .

وبعد : فما كنت أقدر لهذه اللقطة أن تطول إلى هذا الحد . لقد كانت زيارتى هــذه المرة للقرافة قصيرة لم تستغرق بضع دقائق ، فهل هو سر الراقدين الذين أبوا فيما يخيل إلىّ إلا أن أتريث فى مكثى بجيهم وطوفى فأطالوا بما أوحوا ، لبثى عندهم ووقوفى ؟ من يدرى !



في الهرم

فى حضن الصحراء والليل تهويمة كبرى أغضى النهار على إثرها عينيه وراح فى سبات عميق وراء الأفق ناشراً عليه غلالات الشفق الرقيقة .

هناك عند سفح الهرم حيث يهجع الخالدون ويربض أبو الهول الوفى الأمين مطبقاً شفتيه على السر العظيم .

فى هذا الحرم عند سفح الهرم توافد الناس ليسمعوا تفسيرا مضيئاً للمعجزات . . وجلست بينهم . . على شوق مثلهم . . وساد الصمت ، وعم السكون ، وأطفئت الأنوار ، وأضاء قلبى ، واشرأب حبى . . وتطلعت عينى . . إلى الهرم كأنى أراه لأول مرة . . وشعت الأضواء عليه . . ومع الضوء . . صوت وقع فى سمع الصحراء وفى سمعى ثم دوت الأصوات متعاقبة من كل جانب لها هدير . . وأخذتنى هزة أحسبها لفت المكان كله حتى

الأطفال الذين كانوا يتعابثون منذ قليل وتقفز ضحكاتهم المرحة فى الصف خلفى هنا وهناك ، لاذوا بالصمت وجنحوا إلى الهدوء الوادع . . لعلهم بهروا بما يجرى تحت أعينهم بل لقد خيل لعينى الولهى ، أن الصخور قد أتلعت أعناقها لتسمع وشبت نتوءها لترى . . وأن النجوم بنات السماء الجميلات تتقارب وتطل من قمة الهرم تسترق السمع . . كل شىء تحرك من خفة ، أو هزة أو دهشة أو لهفة إلا أبو الهول . . ثابت لا يريم . . صادق لا يمين . . عزيز لا يهون . . كتوم يحفظ السر ويصون . . الأصوات تتجاوب حوله بتاريخ مصر . . وعيناه مسبلتان دائماً من اتزان ووقار وحكمة . . إن ما عنده أكثر . . أين الاحتفال بظهور نجم الشعرى اليمانية بشير الفيضان الذى ما تكاد تلمحه عيون المصريين حتى ينطلق الفلاحون فى فرحة يترنمون :

« أقبل تحوت »

بالمـــاء إلى الحقـــول

وتـــرتوى الأشـــجار

وحتى تغذى الأرض كلها

ثم ينتظم الشعب وراء فرعون فى احتفال مهيب يرددون : (إنه النيل قوام العدل الذى يحبه الناس . يغمطه من يقرنه بالبحر الذى لا ينبت قمحاً ولا وبالصحراء التى لا تؤوى طيرا .

وما دام الناس لا يأكلون اللازورد الحر ، فالشعير أحسن) .

وينبعث النغم رقيقاً حلوا حين يعزفون على المزاهر ويصفقون . ويهلل الشباب ويفرح الأطفال متفتحين كأزهار اللوتس التى ترف فى أيديهم من النضرة ، وتخف الوفود محملة بالقرابين .

إن الأهرام التى تضىء أمامى قد سطروا على جدرانها هذه الخفقة :

(إنهم يرتعدون أولئك الذين يشاهدون النيل عندما يفيض . . إن الحقول تضحك ، والفيضان يغمر شاطئ النهر . . وتخرج قرابين الآلهة وتضىء وجوه البشر وتتهلل قلوب الآلهة) .

أين مهرجانات الفيضان هذه . . أين مجالس القضاء التى ارتفع فيها صوت الفلاح جريئاً غير هياب ، عزيزا

وهو مبين يبسط دعواه لقاضيه ثم يهيب به فى لهجة المؤمن المعتد بنفسه :

« كن كإله النيل يجعل الأرض الجدباء أرضاً خضراء ، ولا تكن كالسيل يدمر مايأتى عليه ، واحذر الآخرة » .

أين مواكب الأسرى . . أين الجنود والبنود وبين يديها الملوك تقدم لملك مصر الولاء والفِدْى . . لكأن أبا الهول يسأل بابتسامته هذا السؤال .

كان وجهه الجميل يشعّ بالنور الأبيض فيشف كأنه صيغ من صافى البلور ولم يقدمن صخر ! فإذا لفه النور الأزرق تألق فى ازرقاق اللون فتخاله رقيا ساحرة من رُقًى الكهان . .

وتنسكب فيوض النور على الصحراء فتحولها إلى أرض جن مسحورة حتى إذا خبت الأنوار وأغمضت عيونها استحالت هذه البقعة من ملك مصر إلى طرق موغلة فى البعد .. والليل .. والسر .. وكأنها تفضى إلى عالم مجهول حتى لتكاد عينى تلمح بها أشباحا تروح وتجىء .

هنا السماء والأرض تصل بينهما الأهرام الثلاثة ... تشد بعضهما إلى بعض . . توثق بينهما الروابط فإن ما فيها

من فن .. من فكرة البعث .. من عقيدة العالم الآخر .. ما فيها من فن ودين يمت إلى السماء حين تنتسب إلى الأرض أحجارها ومواد البناء . .

هنا فى العراء .. بين الأرض والسماء جلست فى حضرة الجلال وجلال الذكرى . . جلست مستغرقة لم أعد أعبأ بالبرد أو الحر موضوع طريقى ، غدوت كأهرامنا الشامخات لا يعنيها شيء وكل بها مشغول ..

وتضاءلت نفسى أمام عظمتهم وشمخت نفسى بهذه العظمة نفسها ، أليسوا آبائى وجدودى .. هؤلاء البناة .. العلماء .. الفلاسفة .. الحكماء .. هؤلاء الملوك . .

وتوالت الأصوات والأضواء .. هذا مهرجان الملك بما يحيط به من جلبة وهتاف ، ويحدوه من أهازيج الجموع ودقات الطبول .. ودبت فى الماضى روح الحياة وشدت ابنتى على يدى وقد تداخلت فى وهمست فى أذنى :

أمى .. ماذا ؟

ورأيتنى دون أن أدرى أشرئب . . أتخطى برأسى الصف أمامى لأرى ! ! كأن الموكب يسير .

وهذه أصوات العمال وهم يزحزحون أحجار الهرم

الأكبر . . وعلى الجهد ينشدون . . إنهم كمليكهم مُسحَّرُون بفكرة الخلود ..

كانت الموسيقى رائعة فى تصويرها . . حية فى تعبيرها تحرك الجامد ، وتلهب الخامد ، وتثير المشاعر والقلوب . وشع النور الأزرق على الهرم وانعكس على الرمال أمامه فخلت نهراً آخر من الجنة لازورديا ينساب فى هذه البقعة من مصر .. فإذا بدل به النور الأبيض خلت زاوية الضلع المواجه لى مئذنة رفيعة شاهقة كمآذن مسجد القلعة وكأنما لفتها غلالة شفة من ابتهالات الفجر . ولكن ما الذى أتى بالمئذنة هنا .. لقد شُبِّه لى .. أو لعل خوفو المعبود ، ذكرنى ، .. باخناتون العابد المتبتل .. لقد دعا العظيم أخناتون إلى عبادة إله واحد فخايل عينى الرمزان على اختلاف ، كما دخل التاريخ الملكان على فروق فى الطابع والعقيدة ..

وأضاء الهرم .. ليست صخورا تلك التى أرى .. إنها هندسة ومعمار وفن وخطوط قوية وفلسفة ودين .. ودوى صوت من جانب الصحراء يعلن قدوم الملك ونسيت نفسى ووجدتنى أحنى رأسى إجلالا لمليكى خوفو .. خفرع .. منقرع .. وحنيت رأسى أكثر لتاريخى .. لوطنى مصر بلد الأمجاد والذكريات .

وسمعت أصواتا تهتف لفرعون الشاب بالعمر .. بالخلود ووجدتنى أقول معهم .. « يارب » ! ناسية أنه غدا ذكرى .. ولكنه قلبي الذى لم يكف عن الخفوق متجاوبا مع كل كلمة .. مع كل قصة .. مع كل مشهد .. مع كل شيء عنهم يشرف مصريتى .. يزدهيها ويزدهينى ..

أخناتون : أيها العظيم الذى نفذ إلى السر الأكبر يا من تجليت فسموت .. وترفعت فعلوت ! وتسمحت فعفوت لكأنى أراك فى سبحاتك .. وقد دنوت من رحاب السماء ترفع صلواتك .. وتتمتم بلغة عذبة جميلة وصوت سرى عميق ، نشيدك الجميل الصافى مما أخذته عنك مزامير داود :

وعندما يصبح الصباح ، وتطلع من الأفق ،
وعندما تضيء كأتون أثناء النهار ،
تطرد الظلمة وتهب أشعتك ،
فالأرضان فى عيد كل يوم ،
ويستيقظ « الناس » ويقفون على الأقدام ،
لأنك أنت الذى أيقظهم ،
إنهم يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم ..
وتسير السفن نحو الشمال ونحو الجنوب ،

لأن الطرق كلها مفتوحة عندما تظهر ،
وتمرق الأسماك فى النهر أمامك
لأن أشعتك تتغلغل فى المحيط ..

وإلى جانبك وقفت فى زهو المحب وخشوع العابد ، الجميلة الفاتنة نفرتيتى مؤمنة بك ، مؤملة فيك . . ترنو إليك على استحياء وتتأملك فى خفر ثم تنتبه على صوت دعواتك تسرى فى سمعها نغما .. وتملأ عليها نفسها أملا فتبتسم فى جذل وتردد وراءك لا تسألك لما تقول تفسيراً :

وعندما يصبح الصباح ، وتطلع من الأفق ،
وعندما تضىء كأتون أثناء النهار ،
تطرد الظلمة وتهب أشعتك ،
فالأرضان فى عيد كل يوم
ويستيقظ (الناس) ويقفون على الأقدام ،
لأنك أنت الذى أيقظهم
إنهم يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم ،
وتسير السفن نحو الشمال ونحو الجنوب ،
لأن الطرق كلها مفتوحة عندما تظهر ،
وتمرق الأسماك فى النهر أمامك .
لأن أشعتك تتغلغل فى المحيط .

اخناتون أيها العظيم . . لكأنى أراك بوجهك العذب ترف عليه ابتسامة هانئة وتضيئه عينان صافيتان تتلو هذا النشيد :

أنت الذى يعطى الحياة(أيضاً) لكل البلاد الأجنبية البعيدة . .

لأنك خلقت نيلا فى السماء ،

لينزل من أجلهم ويحدث أمواجاً فوق الجبال ،

مثل (أمواج) البحر .

لتروى حقولهم التى فى قراهم

ما أجمل أعمالك يارب الأبدية

فالنيل الذى فى السماء،(خلقته) للأجانب .

ولكل حيوانات الصحراء التى تسعى على الأقدام .

أما النيل « الحقيقى » فإنه ينبع من العالم الآخر لأجل مصر .

... ...

كل شىء فى هذا الماضى الجاثم أمام عين الحاضر

باح بسره حتى العشاق لم يطل بهم السرار فقد سرى فى سمعى المأخوذ كعينى من البهر ، رسائل أشواق عذبة رقيقة دافئة على بساطة فيها .. بساطة فى الفكرة وبساطة فى الأسلوب .. أليس رقيقاً عذبا هذا الغناء :

(سأرتقى صفحة النيل ومعى حزمة من الغاب أحملها على كاهلى .. سأذهب الليلة .. فالنهر خمر ، بتاح غابه ، وسوخمت لوتسه ، وأيارت براعمه ، ونفرتم زهوره . انظر إلى الفجر .. وممفيس تبدو .. كإناء مترع بالفاكهة وضع أمام بتاح الإله ، ذى الوجه الحسن) .

* * *

واهم من ظن الصحراء .. صحراءنا بالذات .. بحرا من الرمال .. إنها عالم من الأسرار والتيه والأساطير إنها ملحمة من الشعر سطرتها الأيام ، وتضمنتها أوراق البردى ، وحفظتها الأهرام فكتب لها الخلود .

عندك الكثير يا صحراء من تاريخ الملوك الفراعين فحدثى العالمين عن مشرق الشمس .. عن مهبط الحكمة عن سر الخلود ..

وأنت يامنف وياطيبة .. ياعاصمتى قبل القاهرة ..

طيبه يامدينتى الخالدة قصى علىّ نبأك وارولى الخبر ولا تسأليني عما وعته ذاكرتى عنك وما تملته عينى منك فإنى أشتهى المزيد ..

على الضفاف ، الخصب والخير والنعمة . .

وفى الصحراء ، المجد والتاريخ والفن والعلم والدين .. أيهما أوفى حظا ؟

كلاهما ثرى بكنزه ، سَرِىّ بحسبه ، حرىّ بنسبه ..
كلاهما مصرى من مصر ..

ألا إن النيل يجرى هنا أيضا كما ينساب فى الوادى فهذه الآثار من صنعه كالرياض .. فما كانت فكرة الخلود والحياة بعد الموت لتراود خيالهم وتشغل بالهم حتى جندوا طاقاتهم كلها من أجلها . . لولا ما كانوا ينعمون به فى مصر من مهاه العيش ورغد النعيم ، فعز عليهم مفارقة الحياة بالموت فتحايلوا عليها بتحنيط الأجسام وتشييد الأهرام ، .. إن جنة المصريين مصر خالدة .. حتى إذا اضطرت سنوحى ظروفه إلى الرحيل عنها وخايلته فى البعد ، الدنيا بحلاها وغناها ، لم تغن عنه شيئا فيطرق فى سهمة إذ تغشاه ذكرى حبيبة ويرهق قلبه إذ يتجسم له الحرمان منك فى الحياة

وبعد الحياة (فهو يخشى أن يموت بعيدا عن مصر فيدفن فى غير ترابها ويغسل بغير مائها ، ويكفن فى غير نسيجها فباب الجنة لايفتح له إلا عند ضفاف النهر ، ورفاته مصيرها التلف والبلى إذا لم يغسل بماء النهر ، وأكفانه لن تكون من لباس أهل الجنة إلا إذا كان نسيجها من الكتان الذى ينبت على ماء النهر ..

... ...

وشارف العرض السريع نهايته بعد أن بلغ غايته فنظرت حولى فإذا بالناس الكبار الغارقين فى مظاهر الحضارة الحديثة ، العارفين بوسائلها الناعمين بمباهجها هؤلاء الناس الكبار . . كلهم . . كانوا فى حضرة الجلال صغارا تجمعوا ليشاهدوا صندوق الدنيا بعيون مسحورة وأنفاس مبهورة يهولها ما ترى ويروعها ما تسمع . . كما راعنى .

وعدت إلى بيتى ليغمرنى سيل من أسئلة طفلتى وما درت البريئة أنى مثلها . . طفلة إزاءهم هؤلاء العمالقة ! ولكنى كنت أجيب . . فى قلبى نغم وفى روحى نشوة ، وفى صدرى زهو حبيب .



في الكتابة والكتاب

والكتابة أنماط والكتاب ألوان ؛ فكاتب القلم عنده عدل الروح كرامته من كرامته ، وحريته من حريته ، القلم عنده حِمى لايستباح ولا يشرى ولا يؤجر ولا يساوم فيه ، قد يموت ويظل القلم فى يده مرفوعا ، ويظل القلم بعده مسموعا ، يخبو صاحبه بالموت ولا يخبو ، ويتعثر صاحبه فى القيد ولا يكبو ، وقد ينال من صاحبه الزمن أو القوة أو الأحداث ويظل القلم أبقى من الزمن ، أرفع من القوة أكبر من الأحداث . إن فى طوقه أن يتحداها جميعاً بالجهد أو الحيلة أو الفن ، وما أكثر فنونه — إذا نبغ ، ووسائله . . إنه لا يقهر مهما أرهقه الطغيان أو الحدثان أو التحكم . كيف هذا ؟ إنه سره وحده ، نعم إن القلم سر . . روح كبير . . شخصية معنوية آسرة قد لا ترى ولكنها تنفذ وتستهوى وتقود القلم

نفحة من عند الله .. ولمحة من نوره والإله أقسم به وما سطر . القلم أقوى من العروش وأعلى من التيجان وأكبر من الجبابرة وأقوى من الطغاة ، فكم دك العروش وكم حسر الرءوس وكم أدان الجبابرة وكم أدال الطغاة ثم ارتفع كالعلم بعد المعركة يروى قصة الظفر والانتصار ، فإذا انتظمت معها قصص الصراع غدت ملحمة تتناقلها الرواة وتتوارثها الأجيال .. وهذا أيضاً سره وحده .

وكاتب القلم عنده سلعة للعرض فى الأسواق وما أبخس ما يدفع فيها غالبا من ثمن . . ومثل هذا القلم رخيص كصاحبه ، مهين مثله لا حرمة له ولا كرامة ولا أثر ولا تاريخ . . إلا إذا اتسع التاريخ للإمعات والأغوات وحملة المباخر . . قلم صاحبه كعوالم الأعراس . يغنى لكل عروس ويأكل على كل مائدة ، أو كالنادبة يتباكى بلا دموع ويتجاوب بلا عاطفة .. إنها صناعة ! ويوم يغدو الأدب صناعة ويضحى الفن حرفة فقد كتبت نهاية صاحبه وإن حسبه بعض السذج فى عداد الأحياء أو رآه بعض المخدوعين من ذوى الأقدار من طول هرولته فى كل ركاب .. من طول وقوفه بكل باب .. يدخل من باب ويخرج

من باب وهو فى الحالين يقبـــل الأيدى والأعتاب ، حتى إذا استوثق من أمره بالنفاق والمداهنة خرج على الناس حطاما أو شبه حطام يحمل جثة ضميره ، أفرغ ذله فيهم فاستأسد واستشرى وادعى أنه يملك الرقاب والأسباب .

وإنى لأعجب للناس يحتقرون البغىّ وينفرون منها ويعدونها عاهة أو تشويها فى جسم المجتمع . . ثم ينسون مثل هذا الذليل الذى يصطنع الكبر ويأخذ سمت الكبراء ؟ أليس بغيا هو الآخر ؟ ألم يبع ما لا يباع ؟ . . أليس القلم عرضا غاليا من حقه الصون والعفة والحفاظ ومن يفرط فيه حى بلا عفة . . بلا كرامة . . بلا حياء . إنه ميت يسعى فى أكفانه بعد أن لفظت مقومات الحياة فيه آخر أنفاسها ، أقصد مقوماتها الأصلية من حب للحرية واحترام للنفس والثبات على مبدأ ، وإيمان بالشرف والحق والضمير .

وكاتب مرتزق فهو يدافع بلا حب ، ويحارب بغير اقتناع كالجنود المرتزقة لا تصلح للولاء أو الفداء فإن

والت كان ولاؤها مرهوناً ببقاء سيدها أو مشتريها حتى إذا ذهبت ريحه باعت الولاء للسيد الجديد ، بل بلغ ببعضهم هوان الأصل وعقدة النقص أن انقض على سيده فى حياته فغدره بالمؤامرة وقتله بالغيلة . . وغير بعيد من هؤلاء الكتاب المرتزقة فقد يتعلل واحدهم فى مبدأ الأمر بلقمة العيش ولكنه سرعان ما تألف نفسه اللف والدوران . . والمداهنة . . وتثبت قدمه فى هذه الصناعة فيلحق بالفئة الثانية من حملة المباخر وعوالم القلم .

وكاتب كالماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، لا يحب ولا يكره ، ولا يؤيد ولا يعارض ، فيغدو مسخا بين الكتاب كآلة النوتغرافيا بين أدوات فن الرسم تسجل ما تقع عليه عينها تسجيلا أخرس حين تنحف الريشة الخصور وتبرز الصدور وتخلع على المرئيات الألوان والأضواء والعتمات والظلال ، وهى قدرات الأدب عليها أقدر وفيها أمهر ، فهو يستطيع أن يعكس الضوء ويشف اللون ويشيع الحركة ، ويسمع الصوت ويريك وراء العوالم المرئية أخرى غير منظورة ، ولكن هذه القدرات لايمنحها كل قلم وهذه الأسرار لا يبثها كل كاتب . . إنه يهب

نعمته لمن يهبه نفسه دون شريك من حاكم أو مستأجر كائنا من كان .

وكاتب جنس ، وكأنه يتسلل وراء الناس فى الحمام ، فهو يصفهم عرايا قد نضيت عنهم ، أثوابهم وكأنى به لا يكتفى بهذا بل يخترق جلودهم ويتدسس فى مطاوى نفوسهم ليفسر – على هواه فى أحيان كثيرة – اهتزازات النفوس وخلجاتها . . وكتاب الإثارة هؤلاء يتبعهم الغاوون والمراهقون وإن علت بهم السن فليست المراهقة كما يدل عليها مفهومها مقصورة على طراءة الحداثة وفوعة الصبا . . إنها تتناول التفكير أحيانا والتصرف وإن تجاوز صاحبه مرحلة المراهقة فى حساب السنين . . والأيام . .

ومن كتاب الإثارة هواة الجريمة ومتلقفو أخبارها ومذيعو تفاصيلها إشباعاً لفضول الخالى ، أو تزجية لفراغه ، أو تزكية لشجاعة كاذبة تستعلى فى حقيقتها على جبن مستور :

فإذا خلفنا الطبقات الدنيا من الكتاب والتمسنا العزاء عنهم عند النماذج الرفيعة من الموهوبين ، وجدناهم

كزهر الرياض ألواناً . فكاتب عملاق وهب نفسه للكتابة ووهبت نفسها له هى صاحبته والولد . . لا يكاد يخلو إلى نفسه أو إلى الناس إلا وهو على موعد معها يعود إليها فيه على أنه فى خلوه الظاهر لا يخلو حسه وشعوره منها فهو مع الناس تعيش معه فكرة فى عقله ، أو صورة فى عينه ، أو مسئولية فى ضميره ، أو خاطراً فى خياله ، أو خلجة فى شعوره . . لا يذكره الناس – وما أكثر ما يذكرونه – إلا مقترناً على لسانهم بكتاب جديد أو رأى جديد أو فتح جديد فى عالم الكتابة . .عالمه . . يراه الناس وحده ويرى نفسه فى جمع لا تمل صحبته ولا تذم رفقته ولا ترث صداقته .. صداقة صافية صفاء الخير سامية سمو الأدب صداقة أدباء يعيشون معه فى بيته . . ويعيش معهم فى نتاجهم يطلون عليه أينما يخطو من زجاج المكتبات العديدة المنتشرة فى داره حتى لتكاد تحجب جدرانها وتخفى معالم أثاثها ففى كل ركن ، فى كل زاوية ، فى كل ردهة ، فى كل حجرة أكداس مركومة من الكتب بعضها سمح الوقت بتنسيقها والبعض ينتظر دوره فى القراءة . . ومكانه على الرفوف الخاصة . . يراه الناس حياة عريضة خصبة وأراه حيوات كثيرة

ويعيش المرء أيامه ويعيش هو أجمل أيام العباقرة المحيطين به في صمت وزهرة حياتهم . . وتثير وحدته من التفاسير ألوانا .. إنها ظاهرة عجيبة في دنيا التطاحن والصراع والزحام والتدافع والجلبة والطنين واللغط . . هذا الرجل المتوحد المتشامخ كيف يعيش .. ويذهبون في الجواب أشتاتاً : يراه قوم هادياً كالشعاع .. عالياً كالمنار .. وارفا كالظل .. زاخراً كالنهر .. عميقاً كالبحر .. حالياً كالروض .. رحباً كالأفق .. خصيباً كالوادى . . مترفعاً كالأسد . . مصعداً كالنسر . . مهيباً كالعلم . عتيداً كالجبروت . . لا يرجو ولا يخشى ، إذا تكلم أسمع ، وإن حاجى أقنع ، وإن عادى أفحم ، كثير بنفسه ، سلاحه لا يفل ، وصبره لا يمل ، وجده لا يكل ، وطاقته لا تنضب ، كأن وراءها مددا يرفدها من سر الخلود أو من روح الله ، ويفرض عليه آخرون برود الوحدة وكآبة الوحشة وجدب القلب وفراغ البيت حوله من إنسان يعيش له ويرتجيه . إنسان يخرجه من جوه بين الحين والحين . . لا بل إن المرء محتاج إلى التفاهة أحياناً تجدد شوقه إلى المجد فيعود إليه أنشط وعليه أقدر ، كما يحتاج محرك السيارة إلى الماء يبرده بعد سير طويل . . ويؤيدون رأيهم بالشيوخ من القادرين يتخذون جليبة تقوم

على مطالبهم فى مثل مسئولية الزوجه أو قريباً منها . أليس هذا دليل إحساس بالفراغ يحتالون على ملئه ؟ . . وهب هؤلاء يستغنون بهذا الحل عن بلادة فى التفكير أو بلادة فى الإحساس . . عن كثافة لا ينفذون معها إلى القيم العليا فى الزواج من سكن وأمان وراحة وتعاطف ومودة ورحمة ، ولكن الكاتب العبقرى وهو يدرك هذه المعانى كيف احتمل الحرمان ؟ ولا عبرة عند هؤلاء بهموم الأولاد ومشاغلهم ، فقد يدفع الملائكة الصغار الثمن فى لحظة ، يدفعونه ابتسامة منورة أو كلمة مُسَكَّرَة ، أو لغواً عذباً أو لهواً منعشاً ، أو دعابة هانئة تغسل نفس المكدود فتسترد فى ظلهم الرطيب صفاءها وسلامها .

ويعودون من جولتهم وعلى لسانهم . . هذا السؤال لا يزال : كيف يعيش هذا الكاتب ؟ أيامه كلها قلم وكتاب حتى مجالسه وأسماره مع أدباء أى كتب حية . . حتى ضحكاته على نوادر أدبية . . هل أقفرت الحياة إلا من هذا ؟ إن الأدب جميل معجب ممتع شهى يستطيع أن يملأ القلب والنفس والحس جميعا . . إنه موسيقى ذات أفكار ولكن على أن يكون هواية . . إن الفن ابن الموهبة والهواية ولكن إذا انقلب حرفة فقد الطلاوة والبهاء .

على أن الامتياز ١٠٠ ٪ كما يقول الرياضيون مخيف . . إنه فى هذه الحالة يضمر القلب ويغدو العقل مسيطرا على نفسه وتغدو الحياة بدورها جافة صعبة . . هل يمكن للجسم أن يكون رأسا فقط ، لا بد من أعضاء صغرى تؤكد إنسانية الحى .. تؤكد وجوده .. لابد من رِجلين تسعيان .. ويدين تصفقان ولسان يتكلم وثغر يضحك وحسب العقل أن يهيمن . . أن يسيطر . . حتى فى هذا لا بد له من التجاوز لحظات أو حتى ساعات لتلوين الحياة .

ومرة أخرى يعودون إلى الكاتب العملاق والسؤال على لسانهم لا يزال : كيف يعيش فى هذه السن العالية ؟ أين الواحة التى يرتاح إليها فى شيخوخة العمر ؟ والحقيقة أنى ضعيفة أمام هذا السؤال . . إنى ممن يحبون الحياة حبا جما وأرى فى كل مرحلة من مراحلها جمالا خاصا لا يفوقه جمال الصبا وربيعه . . يخيل إلى أن الرجل أو المرأة أعنى الزوج والزوجة فى الكبر ، يحب كل منهما الآخر أكثر من حبه لأولاده . . إنهما عندئذ عالم خاص . . عالم من الأسرار . . من الذكريات . . من التجارب . . فسلم الحياة الطويلة لكل درجة فيه عندهما قصة . . وما أحلى العمر عند القمة . . إن الشيخين لاغنى لأحدهما عن الآخر . . العلاقة بينهما معنى

خالص .. معنى عميق لادخل للجنس أو الشهوة فيه . . إنهما يجلسان على حافة نبع غير منظور من الذكريات المزدوجة . . من الأحلام المحققة والتى ظلت أمانى . . يعيش الفرد عمرا واحدا ويعيش كل منهما عمرين .

مسكين الكاتب العملاق فى توحده . . نخلة سامقة وسط الحجر . . ارتكازه على شخصه فقط حين يرتكز كل واصل على ظروف محيطة . . ووضعه وضع نادر فى الدنيا . . لقد زادت الفردية عنده على حدها . . فهو لا يهنئ ولا يعزى أقصد بشخصه ، ولا عبرة بالرسائل والبرقيات تنوب عنه . . فهو ليس قطب مجالس ، ومن ثم ترى حديثه كعود القصب مستقيما صلبا وإن لم تحجب صلابته ما فيه من سكر وكتابته كحديثه صلبة هى الأخرى دقيقة . . خير من تتمثل عنده دقة اللفظ العربى ومطابقته للفكرة .. الكلمة عنده « قفاز » محبوك ولو أنه أمَدّ له فى الاتساع نصف نمرة لأراح بعض الناس ولكنه يأبى ويصر لأن المسألة تتصل عنده بطاقة القدرة ، ولهذا لا يتذوقه إلا متخصص ، وقارئه إما أن يفهمه كله أو يتركه كله ، والكاتب فى الحالين كأن صومعته قد كتب عليها بيت المتنبى إن جاز أن يقبل صاحبها فى شموخه البالغ . . الاستعارة من أحد ولو كان عبقرى الشعر :

أنام ملء جفونى عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

ولكن لماذا يلوم الناس الكاتب ، لماذا لا يلومون ، أنفسهم ؟ هل من الضرورى أن يكون الكاتب هو المخطئ ؟ ولماذا لا يكون القارئ هو المتخلف ؟ لماذا لا يصعدون إلى الكاتب . . . ويجشمون أنفسهم جهد الصعود بدلا من أن يقولوا له . . . انزل سلينا .

ولكنها كلمة لا يجرءون على كل حال ، مع هذا الكاتب أن ينطقوها فإن قالوها بمعنى أو بآخر فإنما يكون ذلك بعيدا فى الفضاء على طريقة دون كيشوت والكاتب العملاق إذا تصدر للسؤال والجواب ألفيته موسوعة جامعة تتطوح الأسئلة ولا تعييه ، وتستعصى ولو فى نظر قائليها ولا تعدم عنده الجواب ! كيف اجتمعت له حقائق العلوم مع لطائف الأدب ولاسيما فى عصر التخصص الذى غدا الامتياز فى مادة واحدة كسب يزدهى صاحبه ويعليه ؟ كيف تهيأ له هذا كله ؟ قد يكون هذا هو السؤال الوحيد الذى يزهد فى الإجابة عليه .

على أن وضاءة النبوغ فيه ولألاء العبقرية وعبقرية العصامية لا تخرص تافهين يتصايحون حوله بالغل والحفيظة ،

ومن عجيب أمرهم أو أمر بعضهم على الأقل أنهم يقولون ما لا يعتقدون إن هو إلا ابتغاء للشهرة أو رثاء للخصوم ، فإن حدث أن رقى عواؤهم إليه كما يتصاعد الدخان إلى السماء لم يسكتهم واحدا واحدا بل يدعهم يطنون كالذباب ويتهافتون مثله حتى إذا تكاثر جمعهم وألهاهم التكاثر هشهم بمذبة واحدة فيتفرقون بكلمة منه جامعة أو لطمة منه رادعة يدخلون بعـــدها جحورهم كالنمل . . ومن الطريف قوله فيهم إنهم (واغش بشرى) يعجزه الصعود ويخنقه الهبوط . .

* * *

وكاتب مصور . . الصورة وسيلته فى الإبانة عن كل مايريد التعبير عنه ولو كان خاطرا أو حركة أو كلمة . صور. . صور يواكب بعضها بعضا حتى فى حديثه مع الناس يتنقل سامعه معه فى معرض من الصور . . . والصورة عنده بدورها ألوان ، فقد تكون قصة أو مسرحية أو حوارا ولكنها فى حالاتها كلها طابع أدبه وأداة تعبيره .

* * *

وكاتب لقاط يحلو على مائدته حتى الفتـــات ما دام يستطيع أن يصنع منه شيئاً ، وهو دائماً قادر على هذا ؟؟

لا تفوته فى طريقه حركة أو لفتة أو شارة أو صوت أو نأمة . . الحياة كلها حوله غنية بمادة الكتابة وإن بدت بعض نواحيها فى عين البعض مجدبة أو جامدة ، يستطيع قلمه أن يثرى الجدب من غناه النفسى ويحرك الجمود من طاقته الدافعة وإذا الأشياء التى كنت تظنها تافهة أو مكررة ، ذات شأن حين يشكلها قلمه أو تلتقطها أنامله لتشكلها ريشته على وضع من أوضاع الفن قد يروع بالبساطة ما يروعه بالفخامة والتهويل .

* * *

وكاتب خلاق ومجدود فى وقت واحد يواتيه التوفيق . . ويؤتيه النجاح ولو لم يتوقعه . . فهناك من الأعمال الفنية ما ينجح نجاحا كبيراً دون تدبير . هكذا ! وهذا النوع يعبر عنه الأجانب بأنه ولد فى لحظة سعيدة . . . قد لا يعرف صاحبه سر هذا النجاح وقد يحتشد ليخلق على مثاله مع التجويد والإضافة فيولد العمل باهتا خافتا متهافتا أيضاً ، فالفن ليس مقاييس أو مسافات أو قوانين . . . إنه روح طليق لا يحد . . إنه حركة . . لعب فنى . . إلهام . . إشراق . . فطرة سخية ملهمة . . قد لا يقوم العمل الفنى الناجح على فكرة أو دعوة أو خطة ولكنه . . . يستهويك !

حقا إن الفن فكرة وإمتاع معا . . ولكن مهما يكن العمل الفنى مستويا ثم خلا من الإمتاع يمل وقد يمنى بالفشل وليس الإمتاع عملية سهلة . . إنه فن فى ذاته . . فن مستقل وإن تداخل فى مجموع العمل الفنى . . والإمتاع المقصود . . الإمتاع الغالى الذى يشقى فيه صاحبه وإن أسعد الآخرين . . إمتاع على مستوى عال لا إضحاك رخيص أو تسلية .

* * *

وكاتب الموسيقى من أعوانه . . والرنين من خدامه حتى لتحس معه أن ما فى اللغـــة العربية كلها من موسيقى مادة طيعة فى يده يخدِّمها قلمه تخديما ويشكلها تشكيلا . . الذوق عنده موهبة . . والوشى طبـــع ، والتفويف فن . . . والتنسيق (صنعة) . . يخيل إليك أنه لو لم يخلق كاتبا لكان (جوهريا) صناعته ترصيع الماس ونظم اللؤلؤ .

وهو أصدق مثال على القول السائر (الأسلوب هو الرجل) فإن هذا الكاتب المتألق ، متأنق فى حياته الخاصة متأنق الملبس والمَحْيَا . . متأنق الشارة والعبارة . . بل متأنق الصـــورة أيضاً فقد صاغه الله بدوره خلقاً سوياً وحين أراد له أن يكون كاتباً اختار الرجل الصـــورة

الموائمة لطبعه . . إذن التأنق فيه أصـــيل لا بل إنه ضرورة . .

وهذا الكاتب على جمال النفس والأسلوب فيه شديد العناية بالفكرة . . الفكرة والصورة عنده مترابطتان متكافئتان لا يطغى أحدهما على الآخر ، وإن ظن قوم لاستهواء أسلوبه وشدة أسره أن الأسلوب عنده فى المحل الأول والواقع أن الفكرة والصورة ينالان اهتمامه بدرجة واحدة وهذا هو الكمال الفني . . وليس أدل عليه من أن الرجل قمة شامخة من القمم الأدبية فى حياتنا . . مدرسة تلاميذه فيها كثيرون فى مصر وفى كل بلد عربى ، وأثره فى هذه البلاد سفارة وحده . . وحين تديل الظروف والأحداث من السفارات ، يظل أثره ، الباقى . .

* * *

وكاتب موسيقاه موسيقى العاطفة . واللفظ عنده يستخدمه لإبراز العاطفة . . وهو بموسيقاه قادر قدرة فائقـــة على الاستهواء ، إنه يستطيع أن يأخذك إلى جانبه إذا رضى أو كره ، ومن أجل هذا نراه إذا كتب بلا عاطفة غدا كالورد الصناعى مجرد براعة فى المظهر والتعبير .

فهو أقرب ما يكون إلى قلبك حين تصدق عاطفته

وتلمس تأثره . . والعاطفة عنده على غلبتها متزنة لابكاءة ولا تمثيلية . . ومن قدرة هذا الكاتب على الاستهواء تسحيرك بالمعنى الواحد يزفه إليك فى حفل من الإسهاب والترسل ويحلو لك أن تدور معه أو وراءه حتى إذا خلصت من أسره ؟ . وقرأت المقال للنقد لا للمتعة راعتك الحقيقة فتبتسم منها وتبتسم لها وتبتسم أيضاً من نفسك . . هذا المضمون سهل المنال ولكن السر فى هـــذه الهالة حوله . ويحسب الكثيرون أنهم على تقليده قادرون وما أكثر ما يحاولون . . وإنما :

يصنع الصانعون ورداً ولكن
وردة الروض لا تضارع شكلا

* * *

وكاتب عالم أو هو عالم كاتب فمادته الكتابية حقائق علمية مجردة محدودة فما يكاد يلمسها الأدب حتى يلطف جفافها ويسيغ تناولها وييسر تقبلها ويطوع قارئها فإذا هو صديق يتابع الكاتب فى غير قليل من المجاوبة والألفة التى تبلغ أحيانا مبلغ الحماسة من لطف المدخل وبراعة الحيلة .

وكاتب كشجرة (المانجو) غنى وطيباً وفخامة

وطبيعة أيضاً وعلى رواء هذه الشجرة تسقط ثمرتين غير مكتملتين ولا نستطيع أن نلومها . إنها لا تتصرف وفق خطة مرسومة . . إنها على طبيعتها بلا ضابط : بلا رقيب .

هذا الكاتب كالنبع ينحدر ويترقرق ويفيض أو كالبحر فى هدوئه وغضبه وعمقه وسطحيته أيضا عند الشاطئ . . لماذا يفرضون على الكاتب حالة واحدة وكأنى بهم على وشك أن يطلبوا إليه أن يظل بالطربوش والياقة عند ما ينام ! دعوه فقد يروقكم بالجلباب والطاقية على أن هذه الهيئة لا تقبل منه إذا نزل إلى الشارع . . . المهم عند النقد ألا تتلف المقارنة ، المقاييس . . إنه هو . . إنه هو . . هو فى أتفه ما يكتب أو هذا الذى يعتبره الناس تافها منه بالمقارنة إلى جلائل أعماله . . إن العقاد مثلا لو كتب عن (الملح) أرانى أقرؤه باحتفال فإن الصحافة حين تدفع الكاتب إلى موضوعات سهلة ليس معناه أنه ينزل عن مستواه لأن التناول والمعالجة هى هى .

والكاتب فى الصحافة فى وضع من أوضاعه . . فى وضع ضاحك مثلا . . فى وضع متخفف . . هَبْه كذلك أليس من حقه أن يُرى فى الحالتين ؟

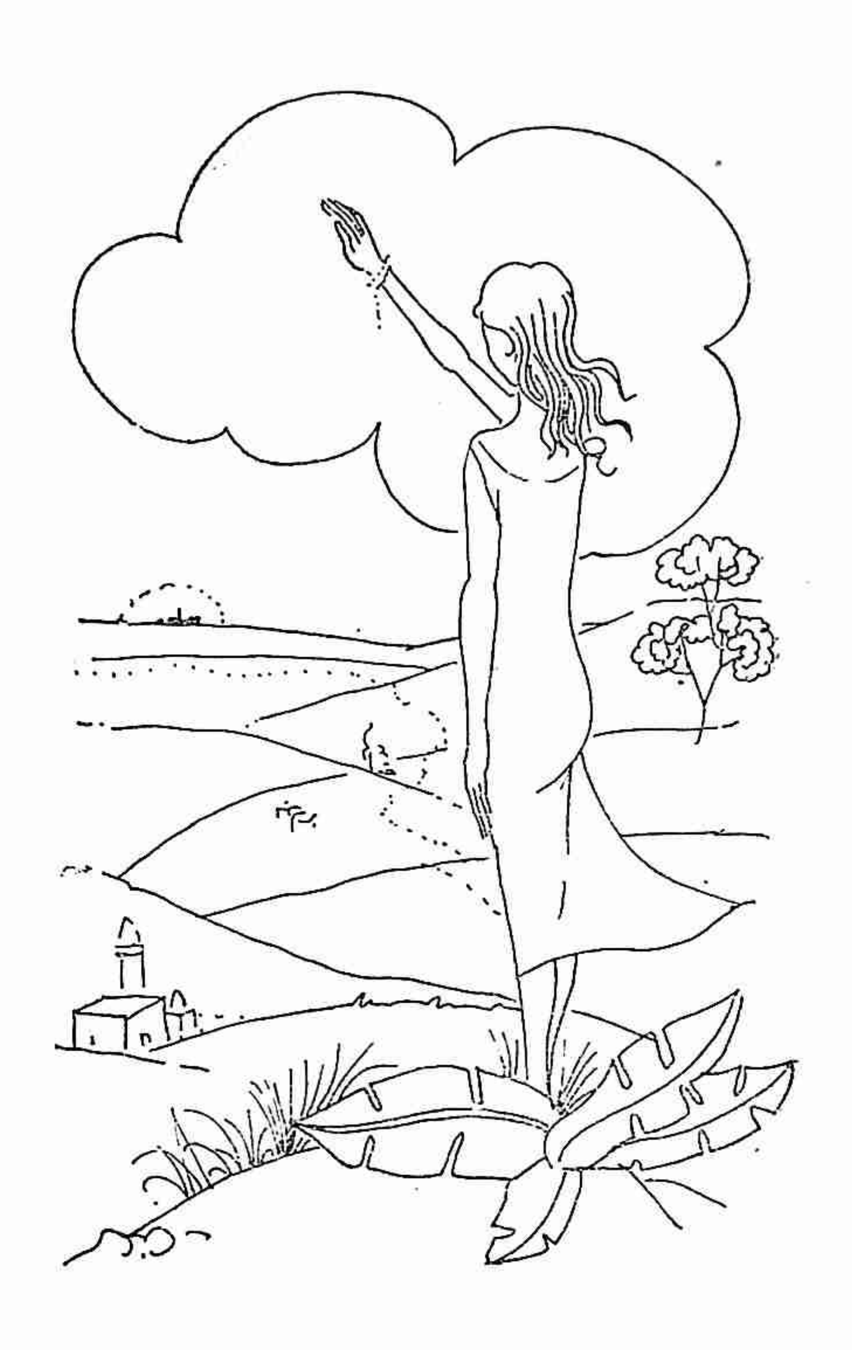
إنى لا ألومه إلا إذا شغلته الصحافة إلى الحد الذى يصرفه عن إنتاج الأعمال الأدبية الجدية . . الأعمال الكبيرة الباقيـــة .

* * *

وكاتب خلق ليكون كاتبا حتى إذا لم يكنه لا تدرى كيف يكون . . . ولا عبرة هنا بالمجتهدين الذين قد يلمعون فى المناصب أو ينجحون فى نَوَاح أخرى فهؤلاء الأدب عندهم حلية وثراء رفيع .

ألا إن القلم الموهوب ليس ثروة لصاحبه وحده بل هو ثروة أيضاً للأمة التى نمته . . انتصرت ألمانيا على فرنسا فى الحرب السبعينية فلم يجدوا متنفسا إلا فى هذه الكلمة التى ندت عن قائلهم ونمت على عزاء لا يخلو من تحد : (ولكنهم ليس عندهم شاعر كفكتور هوجو يتغنى بنصرهم ويخلده . .)

وهى عندى من جوامع الكلم فليس كالفن الأصيل نعمة تمنحها السماء لصاحبه والناس . .



في البعد

فى المطار والطائرة الجاثمة على أرضك تنذر بالبعد عنك يا وطنى والبعد عنك فراق للولد والأهل والأحبة . للأرض والبيت . . للأمن للدعة . . لمعانى كثيرة عزيزة هى بعض ذاتى . . ونور حياتى . . ودنت ساعة الرحيل ودعينا إلى الطائرة . . . فإذا بخطواتى متثاقلة حتى لأقتلع قدمى من الأرض الطاهرة اقتلاعاً ، ولكنى مع الناس أسير أو أبدو سائرة ، وروحى عليك وعلى الصغار لهفى حائرة ، وتهتز الأنامل الطفلة ملوحة للوداع فيزداد تشبثى بك ويلج شوقى إليك وأنا بعد ما زلت حاضرة . . ومن نافذة الطائرة أخذت عينى تعب منك زادها فى الغياب . . .
ودارت الطائرة . . حول المطار مثلى حائمة . .
وحلقت الطائرة . . فى سماء القاهرة . . ثم غابت عن القاهرة . . وغاب معها انتباهى والكلام . . لذت . .

بالسكون أرشف الصمت والرؤى وبقايا الظلال . ولمح
جارى فى المقعد وحشتى والسهوم ، وكأنه فهم ما بى
فلم يلبث أن هتف :

بور سعيد . . وأطل قلبى من الطائرة . . على المدينة
الظافرة فبدت لعينى بأنوارها المتناثرة كنزا من اللآلىء
تتوهج فى ظلام الليل والوحشة . . تضىء وتؤنس . .
كانت المدينة العزيزة فى عينى فيوضاً من النور
أو أسطورة . . . على أديم مصر منشورة . . هل هى
كذلك فى عين كل مسافر أم أنها نفسى المبهورة وعاطفتى
المأسورة ؟ وحلقت الطائرة فوق مدن أخرى كثيرة . .
كبيرة وأضاءت لى مشرقة متطلقة . . متألقة ولكنها
كانت منظرا فحسب إنها ملك لغيرى ليس للقلب أن
أن يخفق وليس للروح أن تطمح إن جاز للعين أن
تجتلى .

و . . . والبدر مؤنسى فى الرحلة ورفيقى كان ضووءه
يتكسر على زجاج النافذة . . طارت الجغرافيا من رأسى
إن البدر قادم معى من مصر . . فإذا غاب لحظة حسبت
الشوق إليها عصف به مثلى فكر راجعا يكتحل منها بنظرة
ثم يعود .

وهبطت الطائرة فوجدتنى فى دمشق . . وكان من حظى أن تطل غرفتى فى الفندق على بردى .

فإذا بى أمام بردى المتواضع عملاقة أطل عليه من علٍ والحصى يلمع فى قاعه ويلفتنى الأطفال يعبرونه فى بساطة سيرا على الأقدام كما يفعلون فى الشوارع الممهدة المرصوفة وكنت على النيل انظر إليه مأخوذة متواضعة وقد تداخل بعضى فى بعض . . وأتهيبه وأنا منه . . إن النهر الأسمر عالم حافل من العجائب والدُنَى والأسرار والأغوار .

وفى دمشق علوت الربى وصعّدت فى القمم وانحدرت مع السفوح ، وفى دمشق صحوت مع الشمس وسرت مع الظلال وانطلقت مع الريح ، وفى دمشق رأيت الغوطة تقبع فى حضن قاسيون وتطل عليها المزة وتلعب فى رحابها أشجار الصنوبر الطفلة وقد تناثرت هنا وهناك كأطفال يلعبون فى ساحة قصر أخضر النبت والظلال .

وعلى طول الطريق رأيت أشجار الجوز تعابث الشمس فتصدها تارة وطورا تتقارب لتقيم من بينها حائلا كاللاعبين عند المرمى ولكن ملكة السماء تغافلها وتتسلل من بين الأفنان كالكرة المقدورة .

وفى دمشق رأيت الدوالى حيث يستريح الكرم على الربوة . .

وفى دمشق رأيت سهل الزبدانى والتفاح .

وفى دمشق رأيت نبع الفيجا ونبع بردى .

وفى دمشق رأيت العين الخضراء وكأن النبت رسم وراء بنور .

وفى دمشق رأيت القرى صاعدة فى الجبل الذى استلقت عليه ظلال الغيوم وبدت فيه منعرجات الرمل الأحمر كعروق الذهب .

كل شيء هنا ماهر فى الصعود والجبل لين العريكة يطامن من عليائه لكل الناس . . لكل الأشياء فالبيوت تصعد فيه والخضرة تعلوه والغمام يتمطى على سفحه فهو دائما فى استقبال يحتشد له ويبدل ألوانا . . ويرق الصخر الأصم ويشف فى الغلائل القرمزية والبنفسجية كأن الشفق فى هذه البقعة من الأرض يخايل الدنيا فى الصباح لا المساء .

كل شيء هنا يبدو متحركا حتى البيوت تبدو بموقعها كذلك فقد رأيتها فى ذهابى تصعد الجبل واحدا وراء

الآخر ورأيتها فى العودة تتقافز هابطة تتدافع على السفح نحو السهول .

وفى دمشق رأيت أشجار الحور النحيلة كأنها أغصان . . كبيرة . . أى شوق براها هذه الأشجار الرقيقة المجللة بالزهور البيضاء كحمائم وليدة مضمومة الجناح .

وفى دمشق رأيت روابى ميسلون وتذكرت المجاهدين يوم انتشروا عليها وفى الجانب المقابل جيش العدوان من الفرنسين ينحدر منها ورأيت يوسف العظم صابرا فى مكانه لايتحول ، ثابتاً لا يريم والخصم فوقه يتخطفه ثم يصرعه . . وسمعت الأنين . . وسمعت الدماء تشخب والجراح تسيل . . أمام قبر ميسلون جرى ذكر المعركة . . معركة تموز . . . ٢٣ تموز من ستة وعشرين . . كانت نهاية وكانت بدايه . . للشهيد . . لبلد الشهيد .

وفى دمشق زرت قبراً آخر لبطل عظيم . . قبر صلاح الدين .

وفى دمشق زرت الجامع الأموى حيث يرتفع الضريح الى « مقام » يطوف به الزائر ويحج إليه الوافدون . وفى الجامع الأموى مقام للحسين رضى الله عنه حيث يسود الاعتقاد

بوجود الرأس الشريف الذى اجتزه شقى لينال الحظوة عند يزيد أو هكذا خال .. وعلى مقربة من مقام الحسين فى الجامع الأموى ثوى يحيى بن زكريا أو يوحنا المعمدان . . تواريخ شتى وذكريات متباينة وعوالم نفسية مختلفة ولكنها الانسانية مهما اختلفت اديان ووسائل وغايات .

* * *

ولكن هذه المشاهد كلها . . كلها . . والجمال يلفها . . والحب يجلها . . لم تحجب صورتك يا وطنى فإذا بى على البعد أراك . . أراك رؤية العين . . نعم رأتك عينى . . رآك خيالى . . رأيتك ونجوت من الشوق . . من شوقى .

كان يحلو لى كلما ضـــلت طريقى أن أقول : أنا غريبة أين طريقى . . أنا غريبة وكأنى أؤكد انتسابى إليك يا مصر وعزتى بك وجاهى . . أنا غريبة حتى بين أبناء العمومة . . ويحى أقول أنا غريبة فى دمشق الحبيبة فماذا عسانى كنت قائلة فى أوربا .

فى غيرك يا وطنى أسير وقد تباطأ خطوى مترددا هيوبا وكان على أرضك ثابتاً مزهواً مليئاً لأنه يملك ماتحته

وما حوله . . يملكه كله ولو لم يحمل عقد تمليك .

أنا غريبة . . كنت أقولها فى فرحة غامضة . . فى حنان . . فى حب عميق لأنى فى الحقيقة كنت أريد أن أعلن أنى مصرية .

أنا غريبة . . تحايل فى التعبير فالحقيقة أنى مزهوة بالانتساب إليك .. نشوى بحمل اسمك وهل كنت فى حاجة إلى إعلان غربتى أو اعلان مصريتى .. أليست هذه السمرة من سمرتك وهــذه اللهجة هى هى . . لهجتك ولكنه اعتزازى . . ولكنه حبى .

كنت أسير بين الوجوه البيض فتحوم روحى على عين سوداء ووجه أسمر . . حتى الأغانى الدارجة التى كنت أزهد فيها فى مصر أصبحت أحتفــل بها هنا لأنها غدت تذكرة تحضرك فى سمعى وحولى وفىّ . . لقد ارتفعت إلى مقام التذكار .

كبرت الأشياء الصغيرة بالانتساب إليك يا كبيرا تشرف به الأقدار .

وكان يذكرنى بك الجمال والعطر والألق لأنك جميل . . معطار ألاق . . كان قصارى الجمال فى غيرك أن يروقنى

ولكن لا يأسرنى ، يستهوينى ولا يسبينى فإن من عرف البحر استقل السواقيا .

وأعود إلى الفندق ملتاحة إلى صورة تطل علىّ منها عين معبودة أو ابتسامة نقية . . وأفتح الحقيبة ثم ترتد عنها يدى . . لقد قررت الهروب من الصور حتى لا يعذبنى حرمانى . . إنى أريد حنان وفينان وأحمد فى حضنى لا على الورق .

* * *

ثم وقعت الواقعة ولف الوجوه وجوم غريب وتقاربت الرءوس مرهفة الأسماع لنبأ يأتى عبر الأثير منك . . وتتوالى النذر فيؤرقنا البعد عنك ويهدنا خوف الانقطاع . لا برق . . ولا هاتف . . لا صوت . . لا صدى . . ويلى من غربتى . . ويلى من أوهامى . . أين منا وجهك السمح الودود ؟ أين منا أرضك أين منا نهرك ؟ أين منا خيرك أين منا أهلك ؟ أين منا أمنك وسلامك ؟ ويجسم البعد الواقع والموهوم حسناتك ويغض من الهنات حتى ليمحوها محوا . . هنات . . حاشاك فأنت لا عيب فيك . . إنْ هو إلا ضعف الإنسان فى كل مكان . .

لا عيب فيك إلا أن غيرك لا يضاهيك .. مهما سما لا يشائيك . . مهما جهد لا يباريك . . مهما حلا لا يباهيك مهما افتن لا يجاريك . . أهو قلبى العالق بك أم أنه البعد يغالى ؟ .

واحتشدت الجهود بغية الوصول إليك وبدأت النفوس اللهفى تقرأ العيون والشفاه هل من خبر ؟ هل من أثر ؟ ويومض الأمل بين الفينة والفينة ويختفى وتضىء تبعا لهذا وذاك الوجوه وتغيم حتى استلعنت البشرى بالرحيل فهلل لها كل نازح عنك كل مشوق إليك . . كل تواق إلى تلاق . .

وتحرك الركب إلى لبنان وقد غمرنا ذهول من لا يصدق أنه على موعد مع فرحة ولقاء .

وفى لبنان هدأ الوجيب وإن لم يغف الشوق . . باتت النفوس تهفو إلى العودة وهى مضمونة مأمونة ولكننا فى بقايا الذهول لا نريد أن نصدق .

وفى متوع الضحى زُفت البشرى بالعودة إلى الحبيبة الرءوم . . مصر . . فزغردت عيون وتهللت وجوه ورقصت مهج وقلوب وهرول الشيوخ والشباب .. إلى

المطار وارتفعت الطائرة كدعواتنا وتشاغل الركب بالحديث أو النظر . . وتطلعت من النافذة فى انتظار . . والشمس تتعمد عينى ولكنى لا أضع المنظار الداكن حتى لا يظلل المرئيات . . أريدها خالصة لايحول بينى وبينها حتى قطعة صغيرة من زجاج شفاف . .

وفى فترة قصيرة زارت أحلامى مصر مرات وقبلت ثراها وتملتها وسلمت وردت سلامات وأنا ما زلت قابعة فى مكانى من الطائرة لا أملك حراكا . . لقد استجاب العلم لدعوة الشعر قبل سرب القطا فأعارنا الجناح المنشود ومع هذا كنت أحس الوقت بطيئاً فأقطعه بالاستغراق فى البحر الممدود تحتنا والبواخر فيه كلعب الأطفال والزوارق كقصاصات الورق المتطايرة على صفحة الماء وبينما كنت أسير وأفكارى إذ هتف بى الفنان الدكتور أبو بكر خيرت مصر . . ورددتها وراءه مرات بلا وعى مصر . ؟ مصر أين هى . .

ـ انظرى . .

ونظرت ورأيت ولبيت . . . رأيت أول ما رأيت بور سعيد . . والقنال . . لوحة رائعة بالألوان ثم بدت

لعيني الدلتا مربعات غين ومستطيلات خضر تتخللها القنوات والرياحات والترع (يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون) لفرعون هذه الآية دين ولى دين ولكن رِضَى نفسى أن أقولها وأرددها وراءه . . عشرات المرات . . هذه الأرض أرضى وهذه الجنة بلدى . . وهذا النعيم وطنى وهذا النهر نهرى وهذا الصفو سمائى وهذه الدور دورى وهذا الألق كله نورى . أنا لا أحب الغرور بل أنفر منه ولكننى حين أخلص لوجه مصر يتخلى عنى كل تواضع المؤمن ويزدهينى كل غرور الواجد المجدود (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . .)

وبينما أنا فى سُبحاتى أردد آياتى ، وأتمتم بصلاتى إذ هزنى صوت ارتطام خفيف . . لقد تدلت عجلات الطائرة ولامست الأرض وتعشق الجناح . . إننا ندور حول المطار . . مطارى أنا . . مطار القاهرة . .

وخرجت من الصلاة لأدخل فى الصلاة . . لقد انحنيت على الأرض أشمها وأستاف ريحها وأقبل حفنة

من تراب . . وهنا بلغ الشوق مداه . . مناه . .
ونظر الغرباء . . وفهم العائدون من رفاق . . لكأن
شفاه المصريين جميعاً عائدين ، وصابرين منتظرين . .
تجمعت معى فوق حفنة التراب الطهور . . إنها ليست
حفنة من تراب إنها الثرى الغالى . . إنها الوادى
المقدس . . طوى . . إنها مصر .



فى القفص الخالى (١)

كان رقيقاً عذبا جميل اللون والصوت .

كان لى طفلا من نوع آخر .

وكان هادئاً وديعاً لم يعبث بشىء . . ولم يحطم شيئاً كالعفاريت الصغار .

هل تذكر المايسترو الصغير الذى حدثتك عنه (فى بيتى) ؟

كنا نصطفى له الغذاء الذى يعينه على التغريد . . كان شخصية متميزة ليس كالقط . . تستطيع أن تصرفه بلقمة أو عظمة . . إنه ليس كالغراب تهشه أو الحدأة تذودها أو البومة تتطير منها . . حتى الكلب على وفائه لا يبلغ فى ارتفاع النظرة إليه والعطف عليه ، مبلغه من فرط رقته . . من حلاوة نغمته . . من دماثته ووسامته . . صغير وغال كالجوهر . . كريم وعال كالفن .

كنت إذا صرفتنى عنه شواغل البيت بعض يوم أتذكره فجأة فى زحام يومى فأفزع من نسيانه وأهرع إليه أطمئن عليه .. على طعامه . . على شرابه وأقف أمامه برهة أعابثه حتى يأخذ فى بعض شدوه فأستريح .

عدت من السفر فغبت فى عناق الصغار ثم جلست بينهم أكلمهم . . فى أى موضوع . . فى أى شيء . . ليس الكلام هو المقصود . المهم أن أستشعر وجودهم من جديد . . أسمع لغاهم . . وفجأة سألتهم عن العصفور . . ونظر الشياطين بعضهم إلى بعض ومرت لحظة صمت قصيرة . . طويلة . . وعرفت كل شيء . . كانوا يخافتون من أصواتهم وهم يدورون حول اللفظ البغيض « مات » ! . .

– متى وكيف ؟ . . كيف ! كأن هناك شيئاً عصيا على الموت .

– ماذا حدث ؟

– ليس منا . . كنا نرعاه ونحبه ونتفقده . وفى مرة لفتنا إليه صمته فأخذنا نطل عليه فإذا به لِقىً تتكاثر عليه أسراب النمل ! . .

ألم أقل لكم إنه كان رقيقاً ناعما خطرات النسيم تجرح خديه ولمس النمل يودى بنانه وجسمه كله ويودى معه قلبي الذى يتعلقه ويودى معه ترفى به وصغوى إليه .

يا ناعما سكتت أنا شيده وكف ترديده . . لقد كنت جزءاً منا . . جزءاً عزيزاً كم حلا لى أن أخلو إليه فأجلس قبالته فى حجرته أقرأ ويشدو . . أكتب ويغنى . . أخيط الثياب وهو يطل علىّ من قفصه العالى ليكون بعيداً عن الأيدى الصغيرة على حب أطفالى له ولكنه لم يكن بعيداً عن قاهر لا يرحم قاس لا يلين فقضى غير باغ ومضى غير مسىء .

وكثيراً ما أغمض عينى أستعرض أيامى معه : هل قصرت يوماً ؟ هل أبطأت عليه فى غذاء أو ماء ؟ . . إن الحجرة حوله تضىء بالنظافة فمن أين تسلل إليه النمل ؟ إن ابنتى الصغيرة مولعة بادخار حلواها فى جيوبها حتى إذا خلا حولها المكان أخرجت مدخراتها ونضت عنها الأوراق ثم تقضم هذا وتدعه إلى غيره . . وتكرر عملية الاستكشاف هذه أكثر من مرة فى اليوم الواحد . . هل علق النمل ببعض الحلوى المتناثرة من

الصغيرة ؟ هل أساءت ابنتى إلى عصفورى وإن لم تقصد وأسأت أنا إليه من خلالها ؟

ويحى ! . . ماذا فعل النمل به ؟ هل أوسعه وخزا وإيلاما أم قضى عليه لساعته ؟ أتراه بكى ؟ أتراه اشتكى فلم تسمع له شكاة ؟ هل راح عاتبا ؟ . . هل مضى غاضبا ؟ لو كان طليقاً لنجا من النمل وارتفع عليه بل لسخر منه هذا الطفيلى الذى يعيش على الآخرين .

لقد علمونى طفلة أن النملة دءوب عاملة صابرة مثابرة . . وحفظت ذاكرتى هذه الصفات لهـــا فكنت لا إراديا أعطف عليها حتى وإن اعتدت على بعض طعامى والسكر وأجترفى سرى القصة القديمة : إنها تعمل فى الصيف للشتاء . وكأنى ألتمس لهـــا العذر . كنت أحترم روسو وأطرب له لأنه كان يتحول عن سرب النمل فلا تطأه قدماه . . . ولكنى اليوم ألعن النمل لأنه أخذ منى هزارى الجميل . . ليته سألنى كل طعامى والشراب . . ثم ترك لى طائرى الغرّيد . . هل يعمى طلب الرزق ، يا إلهى ، بعض الكائنات عن الخــير ويغلف قلوبها فلا تشف ولا تعف ولا تعرف دالة لصوت جميل أو خلق مبدع ؟

كانت ابنتى تلح علينا قبل سفرى أن نشترى لها معـــه (أنثى) . . كنا لغفلتنا نضحك منها ونردد وراءها مداعبين . . أنثى ؟ ولماذا لا تقولين عصفورة مثلا ؟ وما أكثر ما يتعلق الإنسان بالقشور دون اللباب . ليتنا سألناها وقتئذ لماذا تفكر فى أنثى له ؟ أحس الآن أن طفلتى كانت ملهمة . . فلو كانت إلى جانبه أنثى على حد تعبير الصغيرة لأعانته على البلاء المحيط به . . أو دافعت عنه إلى حد الاستماتة أو خففت وحشته وانقباضه ولم يبق من الروح إلا ذماء فى جسد مجروح . .

ليتنا يا حبيبتى الصغيرة وعينا عنك وآتيناه (أنثى) . . إن الزوجة فى أى نوع ، خير بلسم يشفى الجراح . . خير رفيق وأوفى صـــديق . . إن الألم ينكسر بين اثنين كما يبلغ الفرح بينهما ضعفين . . ليت عصفورى أغمض عينه على وجه حبيب أو أسند رأسه إلى صدر عطوف حنّان ! إننا نشترى لحياتنا المادية كل يوم أشياء كثيرة بعضها لا تدعو إليه ضرورة ملحة ثم نغفل عن شراء حياة لقلبه ورضاء لنفسه ورِيّا لعواطفه ؟ ما كان أغناه عن غذائنا والحبوب التى حسبنا أننا كرماء طيبون حين ندقق فى اختيارها وتنقيتها . .

إنى أذكر مولد هزارى الجميل حين كان بيضة لطيفة فى حجم اللوزة الفاخرة ، بيضة تخايل العين فى القفص الملون كما يروع حجر الماس فى علبته المخملية . . لا ، إنها أغلى منه ، فهى واعدة بالبنوة وحجر الماس واعد بالثروة وكم بين الاثنين . . إنها رقيقة تلمسها اليد فى رقة وخوف وحذر وهو صلب يقطع الزجاج وقد يخلع صلابته على قلب صاحبه من صلف وغرور .

وأعددنا للأمر عدته كما يحف بكل (ميلاد) فألحقنا بقفص الأم عشا صغيراً لتضع فيه وفرشناه لهـا بالقطن والقش . . إن الميلاد حدث هام حتى فى العصافير ! وقمت خفيفة أحاول رؤية العصافير الوليدة فما كدت أقترب من القفص حتى سارعت العصفورة الأم بالدخول إلى أفراخها . . وتراجعتُ . . أمام أمومتها . . هذه العصفورة الصغيرة الجميلة كبرت فى عينى . . لقد غدت أما . . لا أعنى بالميلاد . . ففى كل يوم تلد الإناث من كل نوع ، ولكنها أم بالمعنى الكبير المهيب لهذه اللفظة الخالدة فى لغة الإنسان . . كل لغة ينطق بهـا . عندها الحنان والأمان والرعاية . . عندها اللهفة على صغارها . . عندها

المسئولية . إنها تطعمهم وتسقيهم وتفرد عليهم جناحا يستدفئون به ويحتمون . وما معنى الأمومة غير هذا ؟

وجلسنا نتحدث عن هذه الأم الصغيرة الرقيقة : إنها تحس خفقة الكتكوت فى البيضة تنقرها له ليرى . . النور . . إن عالمها البسيط فيه الخفقات والضمات والدفء ولولا هذا ما صارت أما ولو وضعت بيضة كل يوم .

* * *

ليتنى أنساه لقد كنت أحمد قوة الذاكرة تلميذة لأنها كانت توفر علىّ كثيراً من عناء الاستذكار والإعادة . ولكنى أعانى من هذه القوة التى فيها ضعفى وأنا أعيش بين الناس والطيور والزهور والأشياء الصغيرة الضعيفة الجميلة لقد تألمت منـــذ أيام لكسر آنية الزهور مع أنها ليست نادرة وليست غالية الثمن . . ولكنى ، ولست أدرى لماذا ، يعز علىّ ضياع شىء أو كسره مهما كان الثمن زهيداً . . اعتبار الثمن لا دخل له مطلقاً ولكنها ألفة شديدة فى نفسى لكل شىء أتعامل معه . . الأشياء تغدو فى عينى كالأشخاص . . دائماً بينى وبينها رابطة ما . . رابطة غير متميزة . . غير واضحة ولكنها

رابطة أحسها وأحيانا أحسها إحساسا قوياً . وكثيراً ما يضحك المحيطون بى حين تقع عين أحدهم على أقلام الرصاص الصغيرة فى درج مكتبى ويسميها (أعقاب أقلام) . إنها حقا بقايا أقلام الرصاص التى أكتب بها وأنا عادة لا تجرى يدى على الورق إلا بالقلم الرصاص ، وحين أحتفظ ببقية قلم فى طول أصبع اليد فأنا فى الحقيقة أحتفظ بذكرى كتاب أو مقـــال . إن القلم الرصاص فى نظرى ليس القرش أو القرشين اللذين دفعتهما ثمناً له . . وليس قطعة الخشب النحيفة ولكنه صديق معين ظل إلى جانبى ، وفى يدى ، طويلا وكتب معى هذا المقال أو ذاك . . هذا الكتاب أو ذاك حتى إذا براه الجهد ، شق علىّ أن أطوحه . . لا . . أبدا . إنى أحتفظ به وكأنى أحفظ الجميل الذى أسداه ، أحفظ الكتاب الذى كتبه . إنه مجموعة من المعانى والساعات والأيام . . مجموعة من الكلمات والأفكار والسطور . . شىء عزيز كالأدب الذى سطره : أليس وسيلة من وسائله ؟ وقس على هذا باقى الأشياء . كل شىء عندى له لون وله طعم من الشعور .

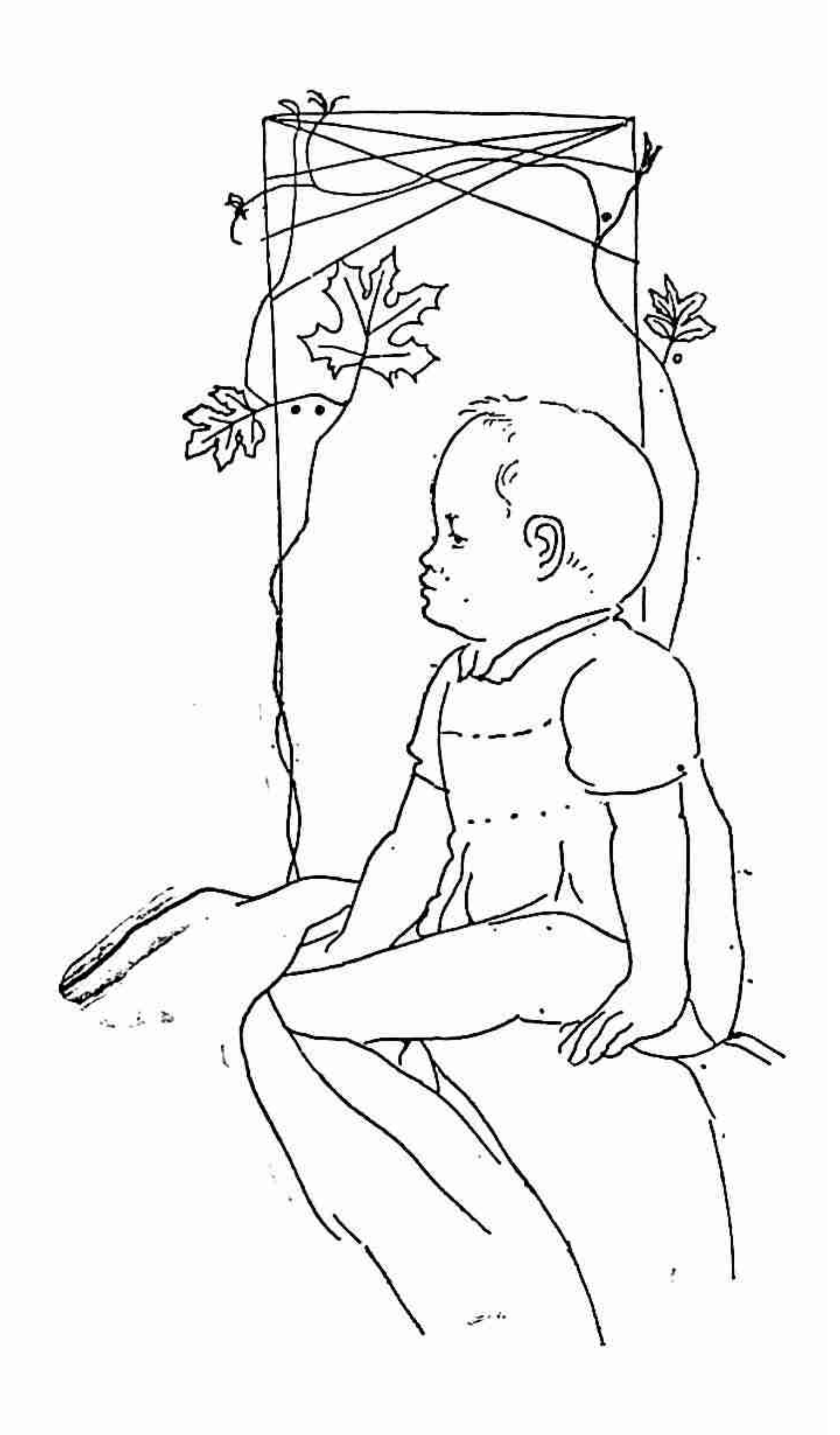
حتى الألوان . . كل لون له لون عندى . لون من المعنى ولون من الشعور أيضاً . أحب الأشياء . . أحب الألوان . . إن الناس فيهم الحسن . وفيهم السيئ ولكن الأشياء والألوان جميلة دائماً لاتسىء أبدا . . إننا نختارها وقد يكون هذا سرها أو سر حبنا لها . إنها اصطفاء . . إنها ذوق . . إنها اختيار . . كثيراً ما أتألم من أجل (زهرية) مكسورة وأحس الذنب ذنبي . لو أنى غسلتها بيدى لما انكسرت . . ولكنى فى الحقيقة هربت عمدا من هذا العمل . . من أجل الورد الذابل . . لقد جف ماؤه وذبلت أوراقه ، حتى العطر به لحقه الضمور والجفاف ، ومع هذا لا يهون على أن أرمى به . . وأين ؟ فى صفيحة القمامة ! أبدا لقد كان وردا ولا يزال ، على جفاف مائه ونصول لونه . ولكن لونه . . ولكن لا بد من استبدال ورد جديد ناضر به . مهمة ثقيلة . المهرب الوحيد منها فى تكليف الآخرين بها . . عندما يأتى الورد الجديد أخف لاستقباله وأجمعه بين يدىّ كطفلى . . إن الورد طفلى هو الآخر . وأظل فى حركة نشيطة ربع ساعة على الأقل أملأ الزهريات الفارغة وأقلم

العيدان . وأصفف الورد والزهر مجموعات وأخطو إلى الوراء قليلا لأراه على البعد بعد القرب ثم أوزع الزهريات على البيت حتى إذا ذبل وحل موعد تغييره وكلت هذه المهمة إلى الخادم . . هى وحدها التى تتبرع مشكورة بهذه المهمة فتطرحه فى غير اكتراث به وتطوحه فى غير أسى له . . وتشاء أن تتوج خدماتها فتكسر الآنية .

(زهرية) وهزار فى شهر واحد ! وكأن كلا منهما أراد أن يذكرنى بصاحبه كما يبعث الشجى ، الشجى .

إن القفص الخالى لايزال فى موضعه من الحجرة الزجاجية . ولكنى أراه فى كل مكان من البيت وكأنه تعدد . . أقفاصا . . ويل للشجى من الخلىّ . . هذا القفص أشيح بوجهى عنه ثم لا أريد رفعه من مكانه إنه يذكرنى به . بالهزار الجميل بالطائر الغريد . بالألوان الموقعة . . بالنغم السارى . . ويحى ، أهرب من الذكرى وأتشبث بها . . ليتنى أجهش بالبكاء لأستريح وأحس الوفاء له بقضاء بعض حقه ميتا ! ولكنى أشرب دموعى فى صمت فتذكى الأسى ولا تعين عليه .

يقولون إن الأمر أهون من ذلك . . اشتر طائراً آخر وضعيه مكانه فيعود إلى قفصك الخالى البهجة والأنغام . . هكذا بسهولة ! ! كأن الأمر لا يعدو تبديل غطاء سرير أو أريكة ! كأنه لم يطربنى يوماً أو كأنى لم أتعهده : أطعمه وأسقيه وأربت عليه وأناغيه . . لا ، لن يحل عصفور محله حتى ولو كان أجمل ريشاً وأحلى صوتاً . . خير لى أن يبقى القفص خالياً . .



إلى ولدي

ملأت حياتى مع أختيك يا بنى . . . أصبح لعمرى معنى ولسعيى هدف . قد يزعج غيرى كر الأيام ومر الليالى ولكنى أفرح بسير الزمن لأنه ينميك ، فكل يوم ينقضى ينقص من عمرى أنا ولكنه يمد لك فى النماء والتفتح فما أهنأ قلبى ! .. ليت عمرى كله يضاف إلى سنيك لتعيشه أنت لى ولك يا حبيبى الصغير ..

لن أنسى ما حييت ذلك اليوم الذى عادت فيه أختك حنان من المدرسة تبكى فى ألم أكبر من طفولتها ... وجن قلبى وحنوت عليها أسألها فإذا بدموعها تروى قصة ... لقد كتبت المدرسة فيما تكتب من أسئلة :

كم أختا لك ؟

كم أخا لك ؟

– وماذا فى هذا ياصغيرتى ؟

ـ لقد أجاب الفصل كله على السؤال الثانى إلا أنا .. لم أعرف كيف تكون الإجابة ؟

ـ أجيبى .. (ليس لى إخوة)

فعادت تبكى من جديد وهى تقول فى سذاجة حبيبة :

ـ ولكن المُدرسة لا تصدقنى . . كل البنات لهم أخ ..

وبكيت أنا ، وأحسست إحساس المذنب من غير ذنب . . إنك وحدك يارب تهب من تشاء الإناث ، وتهب من تشاء الذكور . . ولكن ابنتى لغفلتها من طفولة تتطلع إلىّ وما درت أنى لا أملك لنفسى شيئا من دونك حاشاك . . ورفعت وجهى إليك فى ضراعة صامتة . لم أقل شيئا لأنى فى حضرة من يعلم السر والنجوى وفهمت عنى واستجبت لى ووهبتنى من لدنك صبيا . .

وضج البيت كله من الفرح ولج فى الدعاء ، وإذ زال عنى رهق الوضع نظرت إلى طفلتى فإذا بجنان يهتز كيانها الصغير وتزغرد عيناها فى فرحة راقصة :

ـ أحقا صار لنا شقيق ؟

أما فينان فقد التزمت الصمت وما أقل ما تلتزمه هذه الشعلة الحية من ذكاء ومرح وحيوية .. كانت تدير عينيها

فى المكان وكأنها تقيس مظاهر الفرح والتبريك التى أحاطت بالمولد والوليد . فأحست بذكاء الفطرة وذكاء العقل معا ما ينتظره من حفاوة وتدليل .. وعبثا حاولنا إخراجها من أوهامها تلك الليلة وإن استغرقتها بعد هذا دنياها الخاصة اللاعبة اللاهية ، ولكن العلاقة بينهما حددتها هذه البداية إلى حد كبير ، فهى تحنو عليه بقدر وتداعبه فى افتعال يضحك ، ولها فى هذا الباب طرائف لاذّة تُروى ، حين تسكب عليه حنان ، الحب والحنان دفاقا .. وكأنها أم صغيرة ، حبيبتى الصغيرة . .

بنىّ مالى لا أمل النظر إليك كأنك أول عهدى بالبنين . ونسيت أمومتى الولهى أنها استقبلت قبلك . . « حنان » و« فينان » وكم أغنتنى طفولتهما بمعان وأحاسيس ولكن بك يا بنى تمت نعمتهما علىّ ، فكن لهما ، كالأمل فيك ، خير أخ .. خير صديق . . فمن أجل هذا ترجو الأخوات الشقيق . . ولمثل هذا ترجو الوالدات البنين ..

مالى لا أمل النظر إليك كأنى لاعمل لى إلا قراءة وجهك حين تصحو وحين تغفو حتى لكأنى أرى رموشك وهى تنبت وحاجبيك حين يكثفان يوما بعد يوم .. لا أمل تقبيل رقبتك وعطر الطفولة كامن فيها .. وكلما قبلتها

وعبقت من شذاها رددت بغير حروف .. قول تلك الأعرابية التي كانت ترقص ابنها وتقول :

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى فى البلد

لقد ذكرها ابنها بالخزامى .. حين أنسيتنى كل الزهور .. كل العطور .. ليس مثلك شىء يا صغيرى الحبيب ..

يا بنى ما أحيلى يا بنى
أنت ظل مده الله علىّ

نعمة العمر وتذكار الصبى
والأمانى التى عزت لدى

لست أنساك جنينا خافيا
فى ضمير الغيب أدعوك إلىّ

أتمناك لعينى قرة
حين ألقاك وليداً فى يدىّ

أرقب اليوم الذى تبسم لى
وترى آى الرضا فى مقلتىّ

فأناجيك بألحان الهوى
سابقات خاطرى فى شفتىّ

كلمات هى لا معنى لها
غير أن تسمع منى أىّ شىّ

فتراعينى ولا تقــوى على
غض أجفانك عنى يا بنىّ

كل ما فيك يحلو ويسر حتى تغيير لفائفك بما فيها من فضلات عمل هنىء أباشره فى سعادة وفرحة . . كل حركاتك ترف عليها فى عينى مخايل الذكاء فلفتات رأسك أمارة انتباه ويقظة . . ونظرات عينيك فى اتجاه الصوت علامة إدراك لمصدره . . وخفقات قدميك الصغيرتين حين تعبثان باللفائف البيض دليــل حيوية . سجل حافل بالتفسيرات : سجلك وسجلى معك يا بنى . . .

كم مرة تحسست كفيك وقدميك . . كم مرة شممت عطر طفولتك كما يستروح مجهود الشذى ويستاف العبير . . كم مرة أدنيت وجهى من وجهك ووصلت خدى بخدك ونثرت على رأسك ورقبتك وجبينك المنوّر قبلات داعية بلغة يفهمها عنى وعنك ، ربى وربك . . . يا حبيبى الصغير .

ما لى غدوت أتعلل بك عن كل شاغل سواك ولكنك كثيراً ما تنام كما ترف أنفاس الملائكة وتلوح الفرصة لعمل الكثير فى اطمئنان ولكنى لا أتحول عن مهدك ، فالإنسان

لا يترك المتعة مختارا وأنت متعة الروح وقرة العين والقلب وتمر الساعات على في جوارك لا أحس بها مستغرقة فيك نشوى. وقد أنتبه لحظة على صوت في داخلي يقول : فيم عذرك الآن ؟ قومي إلى بعض شأنك ، فأتجاهل الصوت والصدى وأعود وأفتح عيني عليك تعب لي من عينيك وشفتيك ويديك . . كلك . . كلك يا حبيبي الصغير . .

لقد أحاطت بك القلوب . . منذ كنت مجرد سريان في الحشا يخفق له قلبي وتضيء له روحي . . منذ ذلك اليوم كثرت التكهنات والرؤى والأحلام . . وكنت أرتاح للرؤى والأحلام . . ويتشبث أملي بالرموز والدلالات وأستنطق (فينان) الخبر ، وأسألها عن نوع المولود أنثى أم ذكر ، إن صفاء الفطرة في الطفولة يكشف عنها الحجب كما يقولون . . . نسيت كل ما تعلمته في الليالي الطويلة من منطق وعلوم . . . وغدوت لعبة في يد الخرافات والأوهام من شوقي إليك .. من طول حنيني .

لقد ضمك قلبي قبل أن يحتويك ذراعي وتلثمك عيني فماذا رأيت فيه هل استطعت أن تحيط بحناني وحبي ؟ هل عرفت مدى لهفتي وشوقي ؟ أحسب هذا فوق استطاعتك يا حبيبي الصغير . . إن القلب أكبر من اللغة .. أكبر من

الشعر والشعراء . . أكبر من الفن والفنانين .. فما بالك أنت يا طفلى الصغير .

هل كنت تدرى وأنت تمرح فى حشاى أى سعادة كنت تضفيها بجولاتك هذه ؟ ليس فى الدنيا ضيف يعمق حبه كلما أكثر من الطرق والتنبيه مثلك . . كانت طرقاتك بمثابة (الهاتف) — بلغة إخواننا فى الشمال — الذى يطمئننى عليك ويذكرنى بنعمة وجودك وما نسيت . .

وجاءت ساعة المولد . . وكربنى من الألم ما يكرب الوالدات . . وتضرعت عيون وصلّت قلوب . . وتعلقت أنفاس . وكنت فى آلامى لا تفوتنى معانى النظرات والخفقات فيعلو خوفى وأغيب فى صلاة صامتة ألاّ يخيب كل هذه الآمال المعلقة .. فإذا اشتد الألم عدت إلى دنياى التى انحصرت ساعتئذ فى الطبيب والأهل ، أما الطبيب فكان يخلط جده بالمرح ، وأما الأهل فقد كانوا يمرون بتجربة قاسية حتى إذا أعلن الطبيب قرب مقدمك تجاوبت الأصوات حولى فى هتفة واحدة : « يارب ! » وانهلت دموعى تغسل وجهى وقلقى ، تمسح خوفى ورهقى ، ووجدتنى فى إيمان عميق .. كالقديسين والأبرار أقول بصوت باك : (يا رب !) قلتها كما لم يقلها أحد من الملتفين حولى على صدق حبهم وإشفاقهم . قلت

يا رب بكل آلام عمرى . . بكل آمال قلبى . . كأنك وحدك عوض عن الآلام . . كفاء لكل الآمال . قلتها وهدأت هدأة اهتبلها الطبيب فرصة سانحة فأعمل حقنه فى جسمى ، واستسلمت لأوامره المتتابعة من فرط إعياء أو من عزاء كأنى موعودة من الله الذى دعوته باستجابة الرجاء ، ثم بدد هذا الهدوء المسكوب رجة ضج لها كيانى كله حين اندفعت أنت إلى النور معلنا مولد حياة وبشرى ميلاد ونعيم قلب وأمل أسرة .

وصاح طبيبى فى صوت المنقذ : « ولد ! » فهللت عيون وتهللت وجوه .. ورفت ابتسامات وصعدت دعوات . ثلاثة حروف من نور كان لهــا فعل السحر فى البيت المنتظر والصبر المرتقب والرجاء المشبوب .

وأضاءت أيامى بك يا بنى وانجلى عنى الألم وعدت إلى ما كنت فيه من زحام عملى ومشاغل دنياى ولكنى فى كل الحالات تلفنى الضجات أو تستغرقنى الهدءات ترن فى أذنى هتفة الطبيب فى ذلك اليوم الحبيب « ولد ! » فأنتشى من جديد وترف على وجهى من تلقائها ابتسامة سعيدة ترتسم على أثرها ابتسامات وإن كانت لا تدرى السر ولم تسمع الهتفة « ولد » ؟

كنت أنت الولد الذى يرد عنى نظرات العطف التى تحيط بمولد البنات والكريم أو المتكرم من يقول « إن البنت رزقها برزقين » . . مدح كالعزاء الذى يهون به صاحبه وقع الألم . . مسكينة الأنثى بين قومى وفى الشرق . . إنهم لا يحسون نعمة وجودها إلا إذا أكدتها الأيام . . وكم فعلت ولكنهم فى إصرارهم على تفضيل (الولد) لا يزالون . . . وتحضرنى الآن أسطورة جدتى التى كان يحلو لها ترديدها إن المرأة حين تضع مولودا ذكرا ينتظم من الملائكة موكب تخفق فوقه أعلام الفرح ، فنى السماء زفة وفى الأرض عيد وتبريك ، فأقول لها بفضول طفولتى كله : وإذا كانت بنتا ؟ فتقول فى صوت رحيم ولكنه خفيض (ربنا يقول لها أنا معين لأبيك . .) . . كلام ظاهره أن الله يرعى أبا البنات ولكنه يحمل فى طياته المعنى الكابى . . إن البنت حمل يرهق صاحبه ولو كان والدا . . حمل يعين عليه الله . ما من أحد غيره يستطيع أن يضطلع به .

ومن جداتنا وأمهاتنا من تقول إن (الموجة فى البحر تقف عند ولادة البنت) هل سمعتم ؟ حتى الموجة يصيبها الوجوم هى الأخرى كالأهل والأصدقاء !

وفى ركام هذا كله تلمع هتفة الطبيب : « ولد » .

كنت أنت يا بنى « الولد » وأصبحت أنت السند . . رأى فيك والدك امتدادا لعمره وفرعا لأصله ورسما من رسمه . . ورأيت أنا فيك عز أمومتى وتحقيق أمنيتى ونور أيامى ومصداق أحلامى ورضا عمرى والشوق والمنى . . ورأت فيك أختاك شقيقاً وكبرا فى عين نفسيهما لم تعودا أقل من البنات اللائى لهن شقيق . . هكذا كانت تقول « حنان » التى تعلق عليك آمالا كبارا وتكل إليك حمايتها من العوادى وعزتها على الأيام ، وهى التى تكبرك ببضع سنين ! ! وأقول لها وقد راعنى تفكيرها على هذا النحو :

وكيف وهو ما زال فى المهد صبيا ؟

فتقول :

ولكنه سيكبر ويحمينى . .

عما تصدر صغيرتى يا إلهى ؟ ! . عن قوة تفكير ، أم عن وراثات أم أن فرط رقتها أنطقتها بما تقول تنشد السلامة والأمان ؟ إنها تترقب ذلك اليوم الذى يصحبها فيه أخوها إلى المدرسة ليرد عنها كما تقول عبث الصبيان وشقاوة الأولاد وهى وصويحباتها لا قبل لهن بها . . هكذا تقول : . .

هكذا يا ولدى ننظر إليك طفلا كأنك طراز آخر من الأطفال ، فما بالك إذا بلغت مبلغ الرجال ؟ أى أمل يناط بك ؟ أى رجاء يعقد عليك ؟ أى خير ينتظر منك ؟ أى سر يتمثل لنا فيك ؟ فكن – كما رجوناك – غلاما زكيا ثم رجلا أبيا وابنا حفيا .

يا أمل السنين . . . ويا أعز البنين .



فى الفرح

فرح من الألفاظ البراقة فى اللغة ، فيها من الراحة .. الحروف والمعنى .. وفيها من الواحة .. النعمة وبرد الظلال .. فالأفراح والأعياد والاحتفالات واحات فى صحراء الحياة يتوقف السير اللاغب عندها مليا يتفيأ الظل ويستشعر القرار ويبل الصدى ويستروح العبير ، ثم يستجمع قواه وقد تجددت ، للمسير .

الفرح ابتسامة فى وجه الحياة وبارقة نور وأمل وسعادة .. لهذا يراه المثل الشعبى سانحة تنتهز وفرصة تهتبل ، فقال (الفرح نهب) على المرء أن يقتنصه اقتناصاً ولا يؤجله .

فرح وكأنه إطلاق للنفس من إسارها لتنطلق وتتألق وتتأنق فى هدنة قصيرة مع الأيام .

فى الفرح يتخفف الناس من أثقالهم وهمومهم وآلامهم ينسون أو يتناسون كل ما يكدر أو يشوب . . كل ما يكرث أو يلوب ليضحكوا مع الدنيا فى ساعة صفائها وينهبوا اللذات .

والناس تتفاوت أساليبهم فى إعلان الفرح ما بين متوسع فيه يزدهيه الإحساس به ، ومتحفظ يذيعه بقدر ويشيعه بحساب وكأنه يخشى العوادى ، كذلك الضاحك الذى ما يكاد يستغرق فى ضحكه حتى يقول . . اللهم اجعله خيرا . . وليست هذه الظاهرة بالأمر الهين فإن وراءها رواسب قرون من الآلام والكبت والمباغتة . . جعلت قومنا يتوقعون الشر فى أعقاب الخير . .

وسواء استعلن الفرح أم استتر فإن العروسين فى شغل عن كل هذا ، فإن الفرح بالنسبة إلى العروس فستان أبيض وطرحة يعلوها تاج وتلفها الفرحة . . و . . الفرح بالنسبة إلى العروس ورد وزفة وشموع وأنوار وتهان وهدايا وأثاث جديد وحب و . . رجل ! دنيا جديدة . . وعالم مجهول تهفو إليه الرغبــة ويتحرق الفضول . وإلى أن يروى خيالها من هذا يبدأ المعنى الحقيقى

للفرح .. ويكمن فى المسئولية . الإدارة .. التدبير .. الأمومة .. حيث يبلغ معنى حياتها كنهه ويدرك غايته .

والفرح بالنسبة إلى (العريس) أسرة .. إحساس جميل بالملكية والرعوية .. استقلال .. رشد .. نضج .. رجولة .

أما الفرح بالنسبة إلى المدعوين فقصاراه مباراة فى الثياب والحلى والزينة .

وليلة الفرح تظل مضيئة لا تنطفئ أبداً . مضيئة فى مخيلة العروس على الأقل تتذكرها بين الفينة والفينة .. فى زحام المشاغل وركام الأيام فتستروح الذكرى وتتسلى بالرواية . ليلة واحدة ولكنها تاريخ حافل ملىء بالتفاصيل فى ذاكرة صاحبها وشعوره ، وكم تعذب قصص الفرح من أفواه جداتنا وكلهن فى الأغنية القديمة (زينب) وإن كنت أحسب الاسم تحريفا للفظة (زينة) حتى يستقيم الوزن :

إتمخطرى يا حلوة يا زينه يا وردة من جوا جنينه

وفى طفولتى رأيت أفراحا فى الريف تصر الجدات بما لهن من هيبة ومقام أن تنشد هذه الأغنية فى زفة الحفيدات .

وللفرح تقاليد ومواسم تختلف من شعب إلى شعب ، بل من مدينة إلى مدينة فى البلد الواحد ، وكلها تجمعها فى النهاية غاية واحدة ، هى إعلان فرح أسرتين وإنسانين . . هى بدء حياة . . مولد بيت جديد . . ثم جيل جديد . . استمرار الحياة . .

وقد سرى أسلوب المدنية البرقى على العواطف . . كان الناس قديما يحتفلون بالبدايات والنهايات أربعين يوما ، ولكن اليوم يقتصر الاحتفال على (ليلة) ، وقد يقتضب إلى أبعد من هـذا فى أضيق نطاق . فشهر العسل مثلا استطاع أن يجتذب تكاليف الفرح . . فكثيرون يفضلونه على أفراح يتدفق فيها المال ، ويتبسط فيها الكرم ، ويتجلى فيها البـذخ ، ويتحدى بها التفاخر ثم لا تسلم بعد هذا من المآخذ المفتعلة والأخطاء المختلقة يتبرع بها الضيوف حسبة واحتسابا لوجه النقد . . النقد للنقد ! مجاراة لنظرية الفن للفن .

ولعل هذا وراء اتجاه الأسر إلى الفنادق حيث يستحى النقد أو يتحول — على الأقل — عن أصحاب الفرح . .

معان تدور وأنا على موعد .. مع الفرح فى فندق هيلتون ..

فاليوم فرح علاء . . نجل الأستاذ الزيات . . إنى فرحة بعلاء سعيدة من أجل الأستاذ الزيات . . لقد بكيت معه يوما على رجاء ، ولن يغيب عن ذهنى قط قوله فيه : « كنت أنفر ممن يعزينى عنه لأنه يصغره ، وأسكن إلى من يباكينى عليه لأنه يكبره ، وأستريح إلى النادبات يندبن القلب الذى مات ، والأمل الذى فات ، والملك الذى رفع » .

كل حرف منقوش فى خاطرى وشعورى معا . . ما زلت أذكر قوله : « يا لله لقلوب الوالدين !. . تعزيت يا رسول الله لأن الأرض وما عليها أهون من دمعك ، والسماء وما فيها جزاء لصبرك ، ولكن ماذا يفعل الوالد المحزون إذا فقد الرجاء ، وليس له فى يومه صبر ولا فى غده عزاء ؟ » .

الحمد لله الذى منحه العزاء فى علاء . . لقد صار طبيباً وصار رجلا وهو اليوم عروس يملأ القلب فرحة ونورا . .

وذهبنا إلى فندق هيلتون حيث أقيم الفرح واستقبلنا الأستاذ الزيات على عادته حفيا مرحبا . . هنأته تهنئة متهللة حارة مخلصة .

ـ فين العريس ؟ . . نفسى أشوفه !

ـ أجيبه لك حالا ، ولكن دعيني قبلا أهيئ لكم جلسة ترضونها .

ومر بنا بين الموائد المنتشرة فى القاعة وكانت جلستنا إلى جوار أديبين .

وتركنا الأستاذ الزيات ليعود وإلى جانبه . علاء الحبيب . . علاء العريس .

ـ ها هو ذا العريس يا ستى .

وكانت فرحة بعلاء ملأت عينى به . . وملأت عينى منه فى غبطة تتمنى له المزيد .

وأخذت مائدتنا فى حديث الأدب والفن متطاعة من وقت إلى آخر إلى القادمين . . إلى الجالسين . . إلى الوجوه والأزياء . . . وفى الساعة التاسعة سرى فى المكان أصوات بعيدة . . أصوات فرح . . طبول وزغاريد .. كانت تأتى من بعيد وكأنها تترامى إلينا من جزيرة مسحورة . . وأخذت الأصوات تقترب شيئاً فشيئاً حتى تميزت : . إنها زفة العروس .

لقـــد أقبلت إذن . . وصلت عروس علاء . . الطبول والدفوف والصاجات لها دوى بهيج . . وشاع هرج خفيف فى المكان . . الكراسى استدارت ليتمكن أصحابها من رؤية العروسين عند دخولهما القاعة وفى طريقهما إلى (الكوشة) . . الكوشة المزدانة بالورود والشموع . . الزفة تقترب . . ها هى العروس . . ثوبها . . طرحتها . . طلعتها . . هالتها . . الهالة التى يضفيها الله على كل عروس ليلة زفافها .

وارتفعت الرءوس وأتلعت الأعناق وساد صمت مترقب . . وخطر العروسان . . كان موكبهما طويلا تتقدمه كوكبة كبيرة من العازفات والراقصات انتظمن صفين ، ويتبعه كوكبة أخرى من الزهرات فى الثياب البيض وقد انتظمن صفين أيضاً خلف العروسين يحملن الشموع الطويلة المزدانة بالفل والشرائط الحريرية . . كانت العروس فى ثوبها الأبيض الرائع المرصع باللولى وطرحتها الدانتللا التى تنسحب على وجهها لتزيده فتنة وتزيد العيون إليه تطلعا . . كانت العروس ثابتة الخطوات صريحة النظرات تكاد تبادل المدعوين النظر والابتسام . كانت تستند إلى ذراع العريس (عــلاء) فى وضع

طريف . . كان باسطا كفه وقد ارتاحت كفها عليها منسابة الأنامل وكأنما صب الكفان معا .

وخلف الموكب كان يسير الوالدان والد العروس والأستاذ الزيات ومشاعرى المشبوبة من الفرح . . واشتهيت أن أرى الأستاذ الزيات فى قمة فرحته فرأيته . . على وجهه ابتسامة مختلجة وفى عينيه بريق وصلاة : كانت يده القريبة منا ترتعش وهو يسير . كان يمشى كأنه يطفو . إنها موجة غامرة من الفرح . إنه (عــلاء) حياة القلب وحصاد العمر وأمل الأجل . . إنه (علاء) الباقى له بعد (رجاء) وعزاؤه عنه . إنه (علاء) نور أيامه ومجلى أحلامه وأغلى كنوزه . إنه (علاء) قصة ماضيه وسعد حاضره وصورة مستقبله ورصيده على الأيام . .

إنه (علاء) العزاء والرجاء والبسمة والضياء والولد والسند ، إنه الفرع الواعد والثمرة المرجوة . . إنه الحياة بعد الحياة .

ووصل علاء وعروسه إلى الكوشة ودنا منها علاء وأماط الخمار عن وجهها وابتسمت العروس .

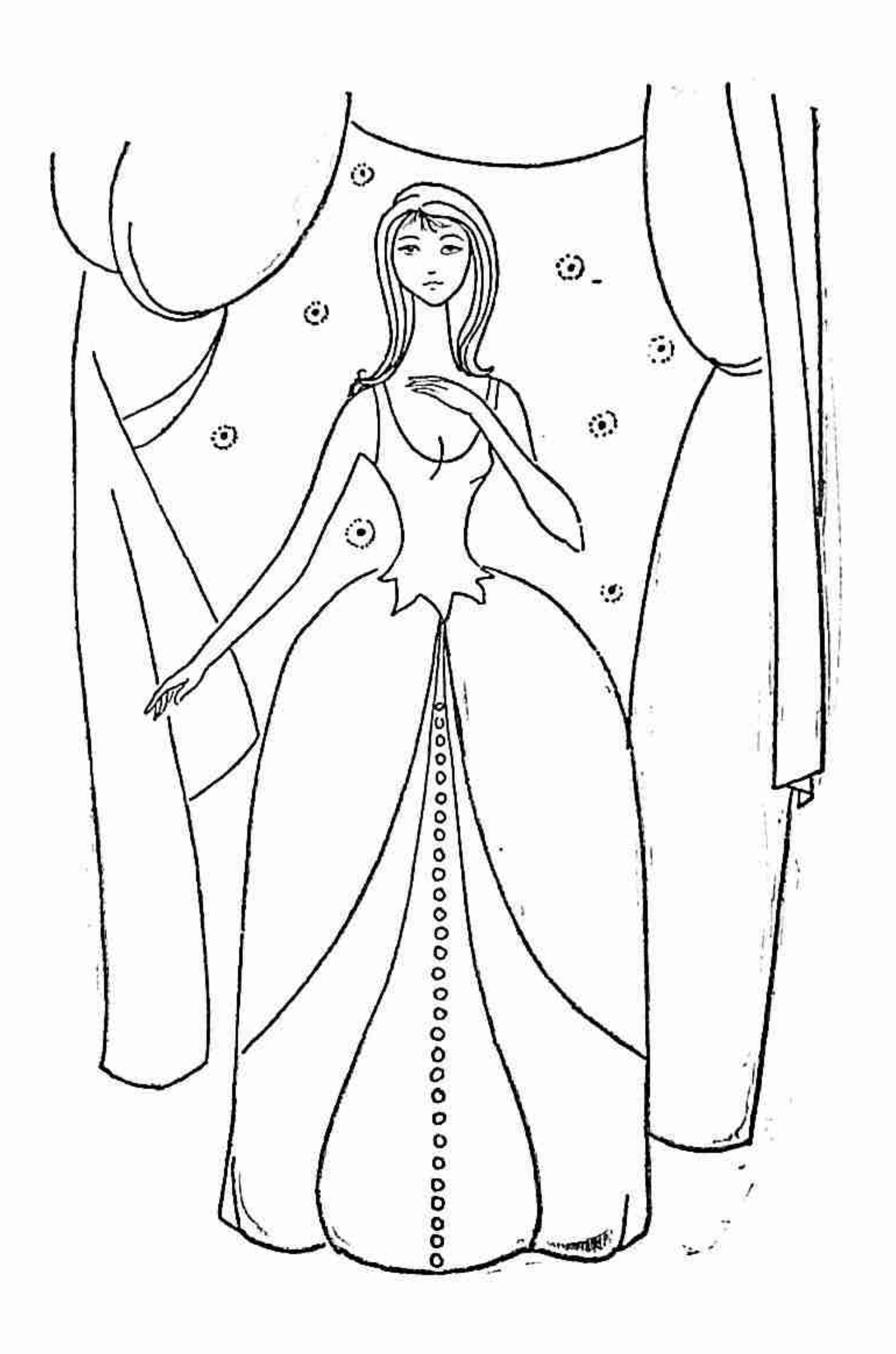
كان الفرح فى هيلتون ولكنه بسماته وحـلاه ورؤاه وبارقات الحياء فيه وبذخه وإسرافه كان شرقيا فيه من الشرق الجلال والروعة .

وتركزت العيون على القمرين فى الكوشة . . كانت العروس تحدث علاء حديثا موصولا وكأن رفع الخمار إيذان لها بالكلام . . كانت فى إقبالها عليه تغرى بالابتسام وتغرى بالحب ، كانت حلوة كالسكرة ، مرحة كالعصفور سقاه الندى وغذاه الضياء . . كانت على صغرها لها شخصية تتبدى فى الحركات والنظرات بل فى القسمات . . كانت قسماتها صريحة بارزة الخطوط . . فى عينيها نجل واتساع كعيون المها . . كان كل شىء فيها جهيرا . . أنفها . . فمها . . ولكن هـذا الجهر نفسه كان يزيد شخصيتها وضوحا دون أن يخل بالجمال أو يهوّن منه . . ومع هذا كله سمعت إحدى السيدات تقول : « العروسة لطيفة » فانطلقت ولا أدرى كيف « والعريس ألطف » . . كنت أحس علاء كأنه شقيق ولو أن معرفتى له تابعة .

ما أحلى العروس . . كل عروس . . كل شىء تأتيه يبدو جميلا فى رأى العين .

متى أرى (حنان) عروسا وأرى (فينان) ! متى أراهما

فى مثل موكب (أميرة) عروس علاء بكل ما حوله وما فيه . متى أراهما وأرى نفسى فيهما . فقد مضى زواجى بغير عرس أو موكب أو حتى ثوب أبيض وطرحة . ومن ثمّ يطربنى مرأى العروس ويشجينى معاً . مخطئون أولئك الذين يظنون أن الثوب الأبيض والفرح إسراف لا محل له أوأن السفر والمنازه تحل محله أو تغنى عنه . . أبداً . . أبداً . . لقد تفتحت لى الحياة بعد زواجى وأعطتنى الكثير . كتبت وسافرت وأنجبت وعرفت نعمة النجاح فى أكثر من ميدان . ولكنى لا أنسى الثوب الأبيض وهالته التى حرمت منها . متى تلبسه حنان . . متى تلبسه فينان وتعزف حولها الموسيقى وتطلق لهما الزغاريد وتنثر عليهما الورود والنقود ، وتضاء الشموع وتزف التهانى . متى يا إلهى ؟ . . أمل كبير ولكنك أكبر !



في الملهى

فى حفل أقيم من أجل أغادير رأيت ألوانا وأنماطا من الأشكال والأشياء والمعانى بلغ من قوة إثارته أن شغلنى عن الحفل والمكان . . هذا مطرب مشهور كانت طريقته تستطيع أن تبعث أى شىء غير الطرب ولكنها بلونها الغريب استطاعت على أى حال أن تنقلنى ، وبسرعة ، من فكرة إلى فكرة .

من عادة المغنى أن يبـــدأ بطبقة منخفضة ثم يدف بالصوت دفا أو يسجح به إسجاحا كما يقول الأستاذ البشرى ، ولكن المغنى ظهر على المسرح ثم اقتعد كرسيا وهذا أيضاً على غير عادة المطربين ثم أخذ يأتى بحركات استعراضية ثم شرع فى الغناء وشرع الناس فى الضحك . . لقد صاح فينا كقطار قادم من بعيد (يا ليل) أى يا ليل . . كان يغنى بجسمه كله . . بقسمات وجهه كلها .. كان يقوم

ويقعد كأنه يجلس على كرسى من البراغيث فلا هو مطمئن إلى الكرسى ولا الكرسى مطمئن إليه .. وبعد مقطوعتين انتهى المطرب من الغناء واختفى من المسرح ولكنه لم يختف من ذاكرتى . إن مسرحنا الغنائى يجمع النقيضين بل يجمع متناقضات كثيرة فى السمت والصوت والطبقة والعبارة والطابع والمضمون، فعبد الوهاب ومدرسته، وأم كلثوم ومطولاتها ، وفريد ولياليه ، والكحلاوى وكفيه ، ثم عبد المطلب وصيحاته وانفعالاته ، وشكوكو وهزلياته .

وفى الملهى رأيت كوكبة كبيرة من مطرباتنا ومطربينا وما يتبعهم من أغان وطرائق تعبير . فمطربة صوتها (مارش عسكرى) يصطنع الحزم والجهارة حتى فيما يحلو فيه الخفوت والرقة — وما أعنيه بالطبع شىء آخر غير التطرى والميوعة — وكم أشفقت على الشاعر تعتصر كلماته الرقيقة بين أسنانها . مسكينة هذه المطربة ، على سمعة طيبة لها . إنها فى حالة حنق دائم الصياح تحسبه هى حماسة .

ومطربة صوتها دائما مبلل بالدموع . فى صوتها حرقة ولذعة ألم ولكنه حلو بما فيه من حنان وشجى

أيضاً وكم شجانا شجاها . ولكن هذا الشجى كله المبثوث فى صوتها قد يشدك إليها بما يبعثه من شجاك مرة ومرات ، ولكنك تمله بعد حين ؛ فالنفس — حتى المحزونة — تتوق إلى المتعة ولو من سبيل التنفيس والانطلاق من الأسر ، أسر الألم أو الكبت أو الهموم . سمعت مرة هذه المطربة تغنى أغنية تتحدى فيها المرأة المحبة عذالها تتحداهم بملء حبها . . بملء حرية أنوثتها المكتسبة ، فإذا بذات الصوت الشجى تعلن التحدى فى انكسار منغم ودموع ملحنة ! !

ومطربة أسعفها اللحن وإن لم تسعفها مواهب الفنان الأصيل من دسامة طبع وعذوبة نفس ورهافة شعور ما تكاد تظهر على المسرح حتى يتشاجر كل شىء فيها وإن بدا صامتا . . عيناها . . وقفتها المقلقلة . . لفتاتها النافرة . . زيها المهوش الصاخب وإن غلا ثمنه ، ومن موافقات الصدف أن أغانيها — إلا ما عصم ربك — تنزع كلماتها ومعانيها هذا المنزع ، فهى مثلها صاخبة متوعدة مرعدة مهددة بالويل والثبور وعظائم الأمور ، مطربة مناكفة وأغانيها مثلها ، فهى لا تكاد تطلب إلى أمها استقبال الحبيب حتى تتحداها . . فإما أن تأذن لها وإما

تناديه هى وتمعن فى طلابه . . هذه واحدة والأخرى من حالاتها تراها مترصدة للحبيب تلاحقه من النوافذ والأبواب، فالمسكين فى الصورة يعدو أمام اخطبوط يطارده . . كثيرا ما يكون اللحن الموضوع لها حلوا أو قويا ولكن أداءها الشرس يرهق أعصابى.

ومطربة كاسية حالية بالوشى والتفويف وصوتها عار عاطل . . فلا موهبة ولا فن ولا تطريب ولا تهذيب أكاد أجزم أن سامعيها أو المعجبين بها إنما يسمعون (فستانها) أو أنوثتها المتفجرة وإن ثقل ظلها . . ولكن المكبوتين والمراهقين يخلطون عادة بين المعانى والقيم . . وأشهد أنها ذكية إزاء هؤلاء الأغبياء، فهى فى قرارة نفسها تعرف حقيقتها، فهى تعتمد على الثوب والأنوثة اعتمادا صريحاً . . فتنفق على الثوب المئات أما إبراز الأنوثة فهو فنها الحقيقى وفرقتها الموسيقية تتألف من شعرها الجامح وحاجبيها المتراقصين وصدرها الظافر وخصرها المنخلع وجسمها الهزاز . . وهذه الفرقة تقوم بالعمل كله فهى تعزف وهى الكورس وهى المطربة وما عداها فصوت ضفدعى ينق فإذا استشرف إلى الطبقات العالية تسلخ وسمج حتى لترفض أن تسمعه.

ومطربة صوتها أخضر دافئ كشباب الربيع فيه أشواق حارة تحسها ولا تتبين مرامها وله نكهة خاصة ولكن يبدو أنه لا يتجلى إلا من وراء (الميكرفون) فإذا أسفر للناس نزل عن مستواه .

ومطربة صوتها ذهبي ولكنه ذهب الأصيل إذا جاء عليه الليل لم تعد ترى منه شيئاً ، وهكذا أغانيها عذبة حلوة ولكن الأغنية تنتهى مع الاسطوانة فلا تبقى فى نفسك طويلا .

ومطربة صوتها خال من كل ما يشغل الناس .. صوت منتعش دائماً ، فهو فى كل مرة تستمع إليه تحس أنه خارج من الحمام لساعته .. دائماً مغسول .. ذلك الصوت .. صوت شديد الرغبة فى القفز هنا والعدو هناك ، يضحك فى داخله ويكركر وإن بدا ملتزما اللحن الموضوع . وهذا الصوت دائماً يحضر صاحبته إلى جانبك فتحس فى كل أغنية أنك تستمع إلى جليس على مقربة منك . أصلح ما يكون ذلك الصوت لأغانى المهد أو أغانى النجوى فيه براءة طبيعية يمسخونها بما يحملونه من ميوعة .. بمناسبة أو غير مناسبة .. حتى غدت له طابعا يغلب على صفاته الطبيعية من ملاسة وسلاسة وصفاء :

ومطربة صوتها غذاء وحياة للناس والمعانى والقوافى والألحان صوت هو فرح كبير ومهرجان باذخ وزفة رائعة، صوت ظافر آسر متحكم ، ومن عجب أنك لا تشتهى معه الفكاك . صوت قادر يستطيع أن يهنيك ويشجيك ، ويسعدك ويبكيك ويمتعك ويستهويك ، ويقنعك ويغريك ، ويطمعك ويقصيك . . قادر قاهر . . كريم وهاب . . كأنه خلق مستقلا عن صاحبته فلها دينها — فى الجود خاصة — وله دين ، فهو فى وقت واحد يقص عليك ويهدى إليك ويسرى عنك . . ويطب لك وهو فى كل حالاته يحلو على المنح والعطاء . . يثرى على الترديد والغناء حتى إذا انفض السامر وتفرق السمار لا يغيب فى الزحام ، إنما يظل فى نفسك يملأ عليك أقطارها فلا سحره ينفـــد . ولا عطره يتبدد . تستطيع أن تعيش عليه أياما فى غنى . . فى رضا . . وإرواء . . صوت يسرى إليك فى روعة وبهاء وفخامة واعتداد ، وأنت بدورك ترقى إليه فى فرحة واشتهاء واحتفال واحتشاد ، له تاريخ حافل فى الحب والغناء ، فكل أغنية قصة وكل أغرودة موقف وفنون ، حتى لكأنه فى جيلنا (ألف ليلة وليلة) جديدة :

إنى أتأمل هذا الصوت فأراه شخصية معنوية تغنى صاحبتها وتغنى أمة من ورائها فهو سفيرها عند الشعوب ، ورسولها بين القلوب .

إنه فن من فنون الله .. المبدع الأكبر.

أما الأغانى فلها بعد مقام عريض . . وأكتفى هنا بتسجيل ظاهرة من ظاهرات كثيرة وهى أن أغانى اليوم يتمطى كثير منها على (قهوة النشاط) فأغنية تستعرض الغاديات والرائحات فى مطلع النهار وتغازلهن على الطريقة (البلدية) :

(يا حلو صبح . . يا حلو طل . . يا حلو صبح نهارنا فل) . . نحن هنا .

وأغنية تغمز بعينها متسائلة :

(آخرة طريقك فين حلو ياللى ماشى . . وردك على الخدين حلو ياللى ماشى) ؟

وأغنية وصلت المقهى متأخرة — غير لهفة على كل حال :

(أبو سمرة السكرة . . أبو ضحكة منورة .. النهارده فات وعدّى ولا لسه . . يا ترى) . .

وأغنية تتفضل فتنهض من الكرسى بعد أن ملت الجلوس ، وتتجول فى اطمئنان متسكعة فيما يبدو . . :

(سألت فى حيّنا ، وحى جنبنا ع الواد أبوعين كحيلة كان فايت من هنا . .)

وأغنية تصطنع (التقل) فى بادئ الأمر ثم لا تطيق الصبر عليه فتصيح :

(يا واد يا سمارة . . يعدى عليا ما يسأل عليّا ولاعنيك يا خاين ترد التحية . . كفايه شطاره يا واد يا سماره . . يا واد . . ياسماره . .)

ونترك الأغنية والمغنية فى رعاية بوليس النجدة لنتأمل خليطاً عجيباً آخر ولكن من المستمعين هذه المرة . . خليط عجيب لانجد له ، أو قلما نجد له شبيها فى غيرنا من البلاد .

وكم يحلو لى قراءة الوجوه والحركات والضجات والصمت فى الملهى . هناك من يستمع بأذنه ومن يستمع برأسه وأعلى الجذع وهناك من يستمع بكفيه ومن يستمع بحوافره وهناك من يستمع بمعدته فحين يوقع الموسيقيون النغم توقع أسنانه اللب و(السندوتشات) وبين هذا وذاك يصفق

ويصيح ويهرج .. مسكين ذوقه مشوش كذهنه فالمتع متداخلة فيه كتداخل المعانى والمفاهيم فى رأسه الخاوى واخوان هذا الطراز لا يَتخلصون للفن ولا يُخلصون له لأنه أصلا لا يعنيهم إنما يحضرون مجاليه للترويح أو للتيه فهم يتمنون أن يشردوا عن أنفسهم فيلتمسون أماكن الضجات يغرقون همومهم فيها فمجلس الطرب فى نظرهم إطلاق لسراح أصواتهم وأكفهم فتنطلق تلك بالتعليق الفج وتنطلق هذه بالتصفيق الأهوج .. أخذت عينى مرة واحدا من هؤلاء شملته نوبة من سعال حين أخذ رفاقه يصفقون ويصيحون حتى إذا فرغوا فرغ هو بدوره من مهمته فهز رأسه أسفا وقال : يا خسارة ضاعت الفرصة .. وهززت رأسي ولكن فى عجب . أى فرصة تلك التى ضاعت منه .. حقا ليس كل تصفيق يحمل تعبيرا ! .. ولكن سرى عنى حين رأيت إلى جانبي الآخر رجلا يشرب دموعه والمغنية تبدع فى الغناء أحسست أنى على مقربة من فنان .. من إنسان .. يفهم حديث الصمت .. إنسان تغرورق نفسه رقة حتى ليشرق بدمعه أمام فن المغنى وبدع الشاعر .

وهبه يبكى أساه هو . . فهو ما زال أمامى فنانا يتجاوب مع اللحن المنظوم واللحن المسموع ويحس خفقه فى صدره يوقظ كوامنه ويشجيه .

مجمع المتناقضات الملهى . . فنان يشرب الصمت ومأزوم يشرب الضجة وما أكثر غواة الضجة هؤلاء بيننا ومن ثمّ لا يستسيغ قومنا الموسيقى السيمفونية . إن سماعها فن وحده بما يحوطه من هدوء قار ، وصمت متعمق ، وتذوق واع ، وتجاوب شاعر ، وحب شفاف ، واستغراق مشرئب ، وتفتح مشبوب ، وتقبل هفاف صافٍ . . وهى قدرات قد لا تعز علينا ولكننا لا نطيقها ولا نصبر عليها .

ليس لنا طابع واحد أو موحد نعرف به . . تيارات مختلفة لم تلتق بعد . . إننا فى طريق النضوج . . التبلور ولكننا لم نبلغه بعـــد فكلما كثرت الأنماط وتباعدت دلت على أن الأمة فى دور الاعتمال . . فى فترة قلق وحيرة نفسيا وتظل هكذا إلى أن (تتبوتق) لو صح هذا التعبير ويسفر الانصهار عن شىء جديد . وإن كان يحمل فى كنهه آثار المراحل السابقة عليه بتجاربها وآثارها .

وما نشهده في الغناء نشهده في البناء ويتمثل هذا في الضواحي حيث يأوي المال والترف ، للزهو ، أو للاستعلاء أو للهـــدوء أو للتقليد أو (للتأقرط) . وقد استشهدت بالضواحي لأكثر من سبب ففيها تنتشر (الفيلل) أو البيوت الخاصة التي يبنيها أصحابها وفقا لأذواقهم واحتياجاتهم وأحلامهم أيضا أعني أحلام الثراء الأولى . . ومن ثم كان لطراز البناء دلالة خليقة بالوقوف عندها واستشفافها . ويؤكد هذا ويوجبه أن معظم هؤلاء إذا استثنينا أغنياء الحرب لهم مستوياتهم الثقافية . ففي الضواحي مستوى مالي معين ومستوى ثقافي ومع هذا فهي برج بابل .. هذه فيللا على الطراز الإيطالي وأخرى على الطراز العربي وثالثة على الطراز الإنجليزي المنحدر السقوف مع أن جونا المشمس قليل الأمطار نسبيا وهذا كله دلالته الوحيدة أن مفاهيمنا وأذواقنا ونوازعنا في شبه دوامه لم تستقر بعد على حال .

وليس هذا فيما يتعلق بالأفراد وحدهم بل في المنشآت العامة فنرى محطة الجيزة على الطراز الفرعوني بينما محطة القاهرة على الطراز العربي وجامعة القاهرة على الطراز الروماني ومن الطريف أن الجامعة الأمريكية على الطراز

العربى ! ليس هناك مبدأ كبير نصدر عنه أو قاعدة واسعة أو فكرة أساسية .

نحن نتعلق بالشكل ولا ننفذ إلى ما وراءه كأن الدلالات ليست لنا فى حساب أو هكذا نبدو .. ليس من حى له طابع عندنا إلا الأحياء القديمة كحى الأزهر مثلا بمآذنه وقبابه وبواباته وبيوته حتى الناس يبدون قطعة منه . ؛ قطعة قديمة كالأشياء المحيطة بهم . ولعل القِدم هو الذى جعل لهذا الحى طابعا .

فإذا تجاوزنا البناء إلى الزى وجدناه خليطا عجيبا من الألوان والأشكال فالجلباب الفضفاض ، وحده أو فوقه جاكتة أو كوفية .. وهناك الجبة والقفطان .. والبدلة ثم التبادل بينها أو بين قطعها ثم يأتى غطاء الرأس خليطا آخر فالطربوش والعمة والطاقية و (اللاسة) ثم القبعة والكاب وفى عالم المرأة تتباهى الأزياء الحديثة إلى جانب الملاءة اللف فى شارع واحد .

مطبخنا نفسه غدا مطبخا تركيا ، شرقيا ، غربيا فى وقت واحد .. وعلى موائدنا تتجاور الأطباق الدسمة (المسبوكة) أو الطعام الخفيف المسلوق على الطريقة الغربية

ثم يأتى دور الآكلين وهم أنواع .. كالطعام الذى يأكلونه فيسخر كل ، من طبق زميله ويعدد مزايا طبقه هو المفضل من ناحية الصحة أو من ناحية المذاق .

* * *

هذا فيما يتعلق بالمظاهر الخارجية فإذا تلمسنا الجوهر وجـدنا التعليم .. الأدب .. الفن .. القيم والمفاهيم .. لاتخلو من هذا التباين ولا هى منه بمنجاة .. فالتعليم منه الدينى الخالص ومنه المدنى على أنواع ومنه الأجنبى مذاهب شتى .

والأدب منه ما لا يزال يتعلق بأهداب الماضى ومنه ما يجافى هذا الماضى جفاء يقطع الصلة .. ويوسع الهوة ومنه ربيب أوربا مادة وروحا ، اقتباسا أو محاكاة ومنه المحلى النابع من صميم واقعنا .. ألوان .

وإذا كانت الموسيقى أقرب الفنون إلى الأدب فانها فى مصر أصدق مثل على هذا القرب والتشابه . . الموسيقى فى مصر منها مالا يزال يتعلق بالموسيقى التركية ذات البشارف التى كانت عماد موسيقانا فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ومنها ما يقتبس من أوربا فى غير كلفة ومنها ما يستوحى بيئتنا ريفنا والحضر .

وتأبى المرأة إلا أن يكون لها دورها فى هذا الكرنفال فواحدة تعيش فى أقصى الصعيد محجبة لا يظهر منها الا حدقتان تبرقان وأخرى سافرة تتابع بيوت الأزياء فى تقلباتها بين الطويل والقصير والضامر والمنفوش وثالثة تتعثر فى المسافة بين الطرفين ، وتعلن الملاءة اللف وجودها بطريقتها الخاصة فى مناطق نفوذها من الأحياء الشعبية . وفى الريف لا تخلع الفلاحة ثوبها التقليدى والحمار .

وإزاء هذا التباين ونتيجة له تتباين فى الحياة اليومية أساليب العيش وأساليب الحديث ، وأساليب التعبير عن ذواتنا حتى ليجمع البيت الواحد أنماطا من التعليم والأزياء والأذواق والعقليات وطرائق التفكير بل ولغة الحديث على ما بين هؤلاء من وشيجة القربى وصلة الرحم .

ويصور المسرح هذا كله وتعكسه القصة الأدبية ففى زقاق المدق و (قنديل أم هاشم) وغيرهما أنماط من الخلق والملابس وصور من العيش و مستويات من التفكير والذوق والتعبير ونماذج من الحياة بيننا وبينها أكثر من سبب فنحن نتعامل معها ونجاورها فى الزمان والمكان ، أى مكان إن ابتعدت ببعضنا الفروق المادية عن جوار البيت :

نحن نخالطها فى الطريق وفى ميدان العمل وهى بحسناتها وعيوبها معا بضعة منا لاتتجزأ .

على أن هذا التباين بعينه مهما اتسعت المسافة بين أطرافه المتناقضة يربطه على اختلاف خيط رفيع هو الروح المصرية التى تكمن وراء آثارنا كلها المادية والمعنوية على سواء .. هذا الخيط الرفيع أو هذا الروح هو الذى يشدنا إلى كل ما يحيط وإن لم يبد فى رأى العين سويا . . والدليل أننا نحب هؤلاء جميعاً أو نتقبلهم .. إنه الشىء المشترك الذى ينتمى الينا .. يجذبنا .

* * *

إنها بلا مراء مرحلة حاسمة من مراحل حياتنا تتصارع فيها قوى مختلفة وعوامل جذرية عميقة يصعب معها التكهن بالنتيجة إلا أن يعجـــل انتشار التعليم باعلانها تعززه الوسائل الحضارية من راديو وتليفزيون وكافة وسائل الدعاية من صحافة ومسرح وغيرهما .

ثم تقدم المواصلات وما يلحق به من تقارب القرية والمدينة سوف يكون بدوره خطوة واسعة نحو التقارب العام . وأحسب أن حركة التصنيع القائمة وازدهار الصناعة سيحل كثيرا من العقد الجماعية . .

وشعورنا هذا بالتباين والتناقض يحس وطأته بنوع . خاص مفكرونا حتى غدا التجانس فى الحياة حلمهم المؤرق . والتجانس المأمول بلا ريب غير التشابه والرتابة التى تورث الركود والبلادة وتنافى النشاط والحيوية والتجدد الذى يعين على التفتح والازدهار .. وأقول حلمهم المؤرق وأنا أعنى الكلمة .. كل حرف فيها فكاتب أصيل متزن الفكر والقلم كالدكتور زكى نجيب محمود يعان فى صدق وانفعال تطلعه إلى حياة قوية غنية دسمة مهذبة مصقولة متجانسة . أمنية يتمناها لوطنه وإن كان المثال الذى يخايله يلوح له على الشاطئ الغربى فتصورنا له نفسه وقد (ارتدينا من الثياب ما يرتدون ، وأكلنا ما يأكلون ، لنفكر كما يفكرون ، وننظر إلى الدنيا بمثل ما ينظرون .

إنى متفائلة .. حولى وأمامى قومنا على الطريق .. إلى الغاية يوفضون فى ثقة وأمل وشوق وإيمان وإصرار يلهب الخطى ويعين على لأواء الجهد ووعثاء الطريق .



فى القصور

كان ذلك فى ليلة صيف دعانا فيها صديق ثرى لزيارته فى (ذهبيته) الراسية على النيل . وأنا بطبعى يستهوينى كل شىء يدنينى من النيل ويصل عينى وحواسى به فلبيت الدعوة فيمن لبوا لأصافح وجه النهر الحبيب والليل سار والموج جار . .

وذهبت إلى الموعد على شوق ودلفنا من الباب الخارجى للذهبية العائمة على النيل وهبطنا بضع درجات ثم انعطفنا على يمين فإذا حديقة هى جزء من إفريز شارع الجبلاية الحالم . وفى الحديقة من ألوان النعيم ما يذكرك بقصور الرشيد أو ليالى ألف ليلة وليلة . . ففى الركن (جبلاية) صغيرة يشع فى داخلها ضوء أحمر ينسكب فى انسجام على صخورها فيحيلها إلى مرمر وضاء ويثير فضولك كله . ترى أى شىء يجرى فى داخلها . . إن جوها

مشحون بفعل اللون الأحمر . . ماذا يدور فيها ؟ هل يحرق البخور ؟ أو تطلق الهمهمات والرُّقى والسحر ؟ إن هذا الترف المترف . . فى حاجة إلى تعويذة تحصنه . وينطلق من الجبلاية الحمراء المتوهجة شىء آخر غير الرقى والتعاويذ إنه الماء يخرج منبثقاً من ثقوب غير منظورة . . أخيراً لان قلب الصخر .

وعلى يسار السائر فى ممر الفسيفساء حجرات كأعشاش البلابل فى خميلة : . . زهر . . ونهر . . وشجر . . وقبل أن تستوعب عيناك عز النعمة المتبدى . . وبدع المال المتحدى ، يفضى بك الممر إلى متسع دائرى فسيح تبدو الكراسى المحيطة بدورانه أصغر من حقيقتها بفعل البعد . . ولكن الكراسى التى أعدت لنا كانت تحيط بالفسقية الأنيقة التى تتوسط المكان تقوم عليها تماثيل الحيوانات المختلفة تمدها بالماء تسلسله لها سلسلة كما تمد الوصيفات الملكة ، بالهواء من المراوح المطعمة . . كانت الفسقية بتماثيلها يتفجر منها جميعها الماء ، على التوالى وفى حركة دخول وخروج كالمايسترو وفرقته يطربك بالانسجام والنظام والتوزيع والالتقاء والصوت والحركة والهارمونى .

أنا الآن سأقطع وصف الجنة المستلقية على صدر النيل لأصل إلى الموضوع .. إلى الصورة التى لا تنسى .. إنه خادم (الذهبية) .. لولا أنه رجل كهل لقلت أنه أحد الولدان المخلدين فهو وسيم الوجه مشرقه ، بض الجسم أبيضه كأنه صاحب هذه النعمة التى تبدو مظاهرها عليه ، لا خادمها أو لعلها أعدته والحسن يعدى على رأى البحترى .. دار علينا الرجل فى سراويله البيض التى يقصر بعضها بعضا .. دار علينا بأقداح القهوة فلم ترفع يدى الفنجان من الصينية إلا بعد ثوانٍ شغلت فيها ، وفتشته عينى من قمة رأسه إلى أخمص قدمه .. لقد راعنى منه وجه منتفخ الأوداج فى شبع ، وعينان صارمتان فى كبرياء ، وشارب كث مجدول لعل الصقر المزعوم استراح عليه طويلا .. تستطيع أن تصفه بأى شىء إلا التواضع ولا أقول الضعة .. إنه حين يقدم إليك شيئاً يحدجك بنظرة تكاد ترفع على أثرها يدك بالسلام تعظيما .. إنه يذكرنى فى موقفه من السادة بذلك الصعلوك التركى الذى كان يستجدينا بقوله :

« حسنة لسيدك محمد أغا » وإلى هنا يعتبر الموقف محتملا . ولكن الذى حرك نفسى وأثار انتباهها وفضولها أيضاً ، هو غياب الرجل لحظة بعد خروجه بأقداح القهوة ثم دخوله علينا ثانية وفى يده (ممسحة) وانحنى على الأرض ! ببدانته كلّها . . بشاربه . . شاربه الكث المجدول من طرفيه إلى أعلى بحيث يجعل أنفه (الأشم) بين قوسين . . انحنى عند . . مواطئ النعال يجفف الماء الذى استخف به الفرح فتناثر من الفسقية يداعب أقدامنا ! !

تناقض عجيب بين شكله وعمله ! أليس كذلك ! ؟ وكم تجمع القصور ، وكبريات الدور من متناقضات وعجائب ! !

ومنذ ذلك اليوم وصورة الرجل مطبوعة فى ذهنى لا تبرحه رمزا على الفروق . . على الصراع . . على سخرية القدر .



— فی دنشوای —

نفس اليوم من خمس وخمسين سنة . . نفس المكان الذى وقفنا فيه يرهقنا خوفنا وتثخننا جراحنا وتلسعنا دموعنا وتحرقنا شهقاتنا . . نفس المكان الذى كانت فيه النساء تشق الفضاء والقلوب بصرخاتهن الباكية والولولة المجروحة والحسرات الدامية . . نفس المكان الذى بكى فيه أطفالنا بحرقة تمزق القلب والسياط تصفع آباءهم الذين كانوا يظنونهم أعزة قادرين على كل شىء . . نفس المكان الذى نصبت فيه المشانق وعلق منها شهداؤنا حسن على محفوظ ويوسف حسين سليم والسيد عيسى سالم ومحمد درويش زهران . . نفس المكان الذى كانت فيه أم محمد فوق النورج فلما رأت نيران الإنجليز تشتعل فى جرن زوجها محمد عبد النبى مؤذن قريتنا الغالية دنشواى اندفعت بهبتنا التقليدية ساعة الخطر ، نحو الضابط البريطانى الذى أطلق

عليها النار فى شجاعة الجبناء فسقطت على الأرض الصابرة وسقط دمها على حبات القمح يصبغها بالدماء الطاهرة فجـن جنوننا ! واندفعنا من الأزقة والمنحنيات نتبع القاتل بهراواتنا والشمس من فوقنا تضرب معنا .. غضبى مثلنا .. نفس المكان الذى مات فيه أربعة وحيا فيه شعب بأجمعه حاول الاستعمار أن يلهيه ، عن نكبته به ، ومأساته فيه فصححت دنشواى الواقعة وتقدمتنا دنشواى إلى المعمعة وانتصرت دنشواى ، وهى المحكوم عليها ، فى الموقعة .. أكرم بها من موقعة .. عظيمة مروعة . نشر فيها اللواء مصطفى كامل ونحن معه .. وتصدى الاستعمار ولكن ليرفعه .. وأرسلت السماء محمد فريد ليتبعه .. وأصاخ له العالم ليسمعه .. وأفاق على بغى انجلترا ليدفعه وكذَّب كرومر وما ادَّعى .. وأطاح به وما شيعه .

إلا إنه وطنى .. وطنى القوى حتى فى ضعفه ما أروعه ما أرفعه .. هكذا سواه ربى فأبدعه عزيزا لا يعرف الضعة .. وأشرق عليه ووقف فى الروع معه .. ما أروعه وطنى ما أروعه .

نفس اليوم ونفس المكان .. ألا إن الدم المضرج قد أخصب الثرى فأنبت الشجر الأخضر وعاد الأبطال الصرعى فى أطفالهم الذين يدبون اليوم على أرض دنشواى ، وينطلقون خفافا يجرون هنا وهناك طافرين من الفرحة كعصافير مرحة تغنى للصباح الجديد .

لم يطل الرماد بأرضنا ولم يدم الجلاد . . راح وراحوا . . وانزاحوا . . واخضر الشجر السليب وأمرع الثرى الحبيب . . واطمأنت حيواناتنا الوادعة . وعمرت من جديد فى دنشواى البيوت . . بيوت الأحبة وإن كانت متواضعة .

أجران جديدة من الذهب المنثور .. أجران القمح فى حقولنا الخضراء وغدا نغنى أغانى الحصاد . . حصاد القمح لا حصاد الرجال . . نغنى للقمح . . للقطن . . للنيل كما غنى أسلافنا فى مصر القديمة .

الشجر . . الأطفال . . الغناء هو طابع أرضنا الطيبة .

الخير . . النعمة . . العطاء هو طابع أرضنا الطيبة .

الصفاء . . البهاء . . النقاء . . هو طابع سمائنا الطيبة .

الزرقة . . الابتسام . . الحنان . . هو طابع سمائنا الطيبة .

الودادة .. العذوبة . . السلام . . هو طابع سمائنا الطيبة .

النور . السناء . . الانسجام . . هو طابع سمائنا الطيبة .

سماء شفه سماؤنا الطيبة .

وطهر وعفة نفوسنا الطيبة .

رعى الله السماء . . وحمى الله الأرض والشجر والنماء والأطفال فى مصرنا الطيبة . . الكريمة . . الباسلة . . النبيلة الخيّرة . . المجيدة الطاهرة . . العريقة الزاهرة . . الجميلة العامرة . . العزيزة الباهرة . مصر القاهرة . . مصر الظافرة .

نعمات أحمد فؤاد

مؤلفات الكاتبة

١ ـــ أم كلثوم	١٩٥٢
٢ ـــ دراسة فى أدب الرافعى	١٩٥٣
٣ ـــ أدب المازنى (الطبعة الأولى)	١٩٥٤
أدب المازنى (الطبعة الثانية)	١٩٦١
٤ ـــ ناجى الشاعر	١٩٥٤
٥ ـــ شاعر الهوى والشباب	١٩٥٥
٦ ـــ إلى ابنتى (الطبعة الأولى)	١٩٥٦
« « (« الثانية)	١٩٥٧
٧ ـــ مصر فى المعركة	١٩٥٧
٨ ـــ شعب وشاعر (أبو القاسم الشابى)	١٩٥٨
٩ ـــ المرأة فى شعر البحترى	١٩٦٢
١٠ ـــ النيل فى الأدب المصرى	١٩٦٢
١١ ـــ نبى الوطنية المصرية محمد فريد	تحت الطبع
١٢ ـــ أحمد رامى شاعر الشباب	« «

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٦٢